الروح القدس
في بعض كتابات الآباء

ترجمة دكتور
جورج حبيب بباوي

عيد العنصرة ٢٠١٧

www.coptology.org

مقدمة

الروح القدس .. النهر العظيم الذي لا يستطيع أحد أن يسبر غوره، وهو المنظر الذي رآه حزقيال وهو يتنبأ عن هيكل العهد الجديد (حزقيال ٤٧: ١-١٢). ويحتل اصحاح ٤٧ من حزقيال، مكانةً خاصةً في كتابات الآباء، وتقرأه الكنيسة كنبوة عن اللقان وعن معمودية المسيح. ذلك أن أهم ما جاءت به المسيحية هو سكنى الله في البشر: "ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت اسرائيل .. عهداً جديدًا، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم..." (أرميا٣١: ٣١-٣٤). ويحتل عيد العنصرة أهمية كبيرة تشير إليها الكنيسة في آخر كل قداس عندما يرشُّ الكاهنُ المياه بعد التناول كرمز للنهر الذي يخرج من تحت عتبة البيت من تحت جانب البيت الأيمن عن جنوب المذبح: "وإذا بنهر لم أستطع عبوره لأن المياه طمَّت، مياه سباحة نهر لا يُعبَر" (حزقيال٤٧: ١-٥). ذلك أن رش المياه إشارة إلى تحقيق حلول الروح القدس الذي يغمر الكنيسة والذي لا تستطيع الكنيسة أن تدرك أعماقه.

وفي عيد العنصرة نحن ننضم إلى الرسل القديسين بالشكل الذي تعبِّر عنه الكنيسة في الطِّلبة الثانية في صلوات السجدة: "ليأتِ علينا روحك القدوس. الذي أرسلته على تلاميذك في هذا اليوم الخمسيني .. فامتلأنا نوراً من قبل لهيب روحك القدوس وخلصنا من ضلالة الظلمة باتحادنا بالألسن النارية المتفرقة" (كتاب السجدة ١٩٧١ ص ٢٧٨).

ولما كانت هذه الوحدة تجمعنا مع الرسل لأنهم الأساس الحي الذي شُيِّد عليه الكنيسة، وهم أعمدة الإيمان في الكنيسة الواحدة؛ لذلك هم يحتفلون معنا ونحن معهم بعيد حلول الروح القدس. وهذا السبب هو الذي جعلنا نختار عظة عن العيد للقديس

يوحنا ذهبي الفم، لكي نسمع ماذا كان يقول هذا الواعظ الشهير في مثل هذه المناسبة. وأضفنا شرح أسماء الروح القدس للقديس امبروسيوس لأنها من البساطة والوضوح بحيث أنها تلقي الكثير من الأضـــواء على لغة الكتاب المقدس وعلى عمل الروح القدس فينا. وأخيراً ختمنا بشرح القديس أثناسيوس للتجديف على الروح القدس، سائلين الرب أن يمنحنا ثباتاً في الإيمان .. وكل عام وأنتم بخير.

دكتور جورج حبيب بباوي

الطبعة الأولى: عيد العنصرة

١٣ يونيو ١٩٧٦

القديس يوحنا ذهبي الفم

عظة يوم الخمسين سنة ٤٠٠ م[١]

١- عظيمةٌ حقاً هي العطايا التي وُهِبت لنا اليوم من الله الحي، ولا يستطيع أي لسان بشري أن يصفها. وهي التي ستجعلنا نسبِّح معاً ونحمد الرب.

اليوم نحتفل بعيدٍ كبير، وكما تتعاقب الفصول في الكون كلُّ فصلٍ بعد الآخر، هكذا في الكنيسة كلُّ عيدٍ يعقبه عيدٌ. فمنذ أيام قليلة احتفلنا بعيد صلب المسيح وبالقيامة ثم بصعود ربنا إلى السموات. واليوم وصلنا إلى القمة وإلى أُم الأعياد، وإلى تحقيق وعد الرب: "إذا لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي، ولكن متى ذهبت أنا أرسله إليكم" وما أعظم عطف الرب علينا ومحبته التي لا يُنطق بها، فقبل هذه الايام، صعد إلى السموات وجلس على عرشه الملوكي وعاد إلى مجده عندما جلس عن يمين الآب. أما اليوم فهو يعطينا نزول الروح القدس، ومن خلال الروح يمنحنا العطايا والمواهب السماوية. وهل المواهب التي فيها خلاص نفوسنا تُعطى لنا من آخر غير الروح القدس؟

بالروح القدس تحررنا من العبودية ودُعينا إلى حرية أولاد الله. بعمل الروح في التبني، بل من خلاله أُعيدت خلقتنا، وخلعنا كل أغلال خطايانا. بالروح القدس نرى جوقه الكهنة في خدمتنا، وبه ننال معونةً في مدارس المعلِّمين[٢]، ومنه تأتي مواهب الإعلانات وعطايا الشفاء وكل المواهب الأخرى التي تُغني الكنيسة. وهذا ما يعلنه بولس عندما يقول: "هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه موزِّعا لكل واحدٍ بمفرده كما يشاء"

---

(١) مجموعة الآباء اليونانيين، مجلد ٥٠: ٤٦٣.

(٢) أي التعليم الذي يعطى للموعوظين.

(١كورنثوس ١٢: ١١). ''كما يشـــاء'' الروح، وليس كمَن يؤمَر بالتوزيع. والروح هو الذي يوزِّع، ولكنه هو لا يتوزَّع[١] أو ينقســم؛ لأنه هو صــاحب كل هذه المواهب وليس خاضعاً لسلطة أحد.

إن نفس ســلطة الآب هي نفس ســلطة الروح، لان الرســول بولس يقول عن الآب: ''لكن الله وحده الذي يعمل الكل في الكل'' (١كورنثوس ١٢: ٤). وهذا هو نفس الكلام عن الروح القدس: ''هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه موزِّعا لكل واحد بمفرده كما يشـاء'' (١كورنثوس ١٢: ١١). وهنا نرى بكل وضـوح، كمال سـلطة وقوة الروح؛ لأنه طالما أن الجوهر الإلهي واحد، فمَن يتجاسـر ويشـك في أن السـلطة واحدة. ولأن الأقانيم متساوية، فقوتهم وسلطانهم واحد.

من الروح نلنا مغفرة الخطايا. وبالروح صــرنا أنقياء من كل دنس. وعندما أُعطي الروح لنا تغيَّرنا من بشرٍ إلى ملائكة، لأن كل الذين يتعاونون مع نعمة الروح يتغيَّرون دون أن يفقدوا طبيعتهم البشرية، وما أعجب هذا، فإننا نظل محتفظين بطبيعتنا البشرية، ولكننا نسلك في حياةٍ لائقةٍ بالملائكة.

وقوة الروح مثل النار. فإذا لمسـت النارُ الطينَ تحوّله إلى فُخَّارٍ صَـلب. هكذا نار الروح القدس، عندما تتغلغل في داخل نفوســنا، تجدها ألين من الطين، إلا أن قوة نار الروح القدس تجعل نفوسنا أصلب من الصُّلب.

وتظهر قوة الروح القدس أيضاً في التجديد؛ لأن النفس التي كانت ملطخةً بوحل

---

(١) هذه العبارة من العبارات الشائعة عند كل الآباء وقد دخلت الطقس الكنسي الشرقي، حيث تقول صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي: "الفاعل الطهر بسلطةٍ بمسرتك في الذين أحبهم وليس كالعبد. البسيط في طبيعته، الكثير الأنواع في فعله. ينبوع النِّعَم الإلهية، المساوي لك ..."، وهكذا تؤكد الصلاة أن الروح القدس لا يخدم الآب والابن كعبد، بل يوزِّع كأقنوم، كل العطايا بذات سلطة الآب، وهو نفسه الذي يعطي ويهَب لمن يشاء، ولكنه لا ينقسم عندما يوزِّع العطايا لأنه بسيط، أي غير مركَّب، وبالتالي لا تقبل طبيعته التقسيم، ومع ذلك فهو كثير الأنواع في فعله لأنه كما نقول في صلاة الساعة الثالثة "كنز الصالحات".

الخطية، تصبح كلها مرةً واحدةً مشرقةً ببهاءٍ يفوق الشمس. ومِن مثل هذه الأدناس حذَّرنا الرسول بولس: ''لا تضلوا، لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله'' (١كورنثوس ٦: ٩-١٠). وعندما حصر الرسول تقريباً كل أنواع عدم الاستحقاق، وأكَّد أن كل الذين استعبَدوا ذواتهم، ويصبحون غرباء عن ملكوت السموات، أكمل قوله: ''وهكذا كان أُناسٌ منكم، لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم'' كيف وبأي وسيلة؟ هذا ما يجب أن نعرفه: ''باسم ربنا يسوع المسيح وبروح إلهنا'' (١كورنثوس ٦: ١١). انظروا يا أخوة يا محبوبون قوة الروح القدس، كيف يمسح الروح نفسه كل خطايانا، ويرفع كل الذين سقطوا تحت أثقال خطاياهم إلى أسمى مقام؟

٢- وأنتم الذين معنا اليوم ألا تحزنون وترفضون تماما تجديف الذين ينكرون مقام الروح القدس الإلهي... ؟ يا ليت الجاحدون يتذكرون عطاياه ويمنع الشعور بالجميل تجديفهم. ولكن يا للأسف أنهم لا يخجلون من العمل ضد كل ما يخص خلاصهم ويرفضون الروح القدس بشدة، بل يقاومون أُلوهيته وربوبيته جاعلين إياه في مرتبة مخلوقٍ...!!

إني أُوجِّه سؤالاً واحداً لهؤلاء المجدِّفين: لماذا تحاربون بكل هذه المرارة ضد كرامة الروح القدس الإلهية؟ أو بالحري لماذا تحاربون ضد خلاصكم؟ ألا تفهمون معنى ما قاله المسيح لتلاميذه: ''اذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس'' (متى ٢٨: ١٩)؟ لأنكم في هذا النص، تشاهدون الثالوث الواحد غير المنقسم الذي له ''اسمٌ'' وليس ''أسماء''. وهل في هذه العبارة: ''باسم الآب والروح القدس'' أيُّ فصلٍ أو انقسام؟ وما الذي تتجاسرون على إضافته لكلام الرب؟ يا ليتكم تتعلمون من الأمور الأرضية، لأن أيَّ إنسانٍ يتجاسر على حذف أو إضافة أي شيء إلى رسائل الامبراطور الذي هو بَشَرٌ مثلنا يُحسَب مجنوناً، بل يعاقب بعقوبةٍ كبري، ولا يوجد من يستطيع أن يمنع عنه العقاب الذي يستحقه.

فإذا كان خطرٌ رهيبٌ كهذا يهددكم، رغم أن الخطأ أرضـــيٌّ، فكم يكون رهيباً الخطرُ الذي سـيهددكم لأن الخطأ سمائي؟! وما هو الغفران الذي تتوقعون الحصـول عليه وقد انحرفتم بشكلٍ رهيب إلى درجة التجاسُر على إفساد كلمات مخلص كل البشر، ولا تريدون أن تسـمعوا لكلمات بولس التي يتحدث فيها المسيح إلينا بصـوتٍ واضـحٍ جداً: ''ما لم تر عين ولم تسـمع به أُذن ولم يخطر على قلب إنسـان ما أعدَّه الله للذين يحبونه'' (١كورنثوس ٢: ٩)؟!

فاذا كان ما أعدَّه الله من صـــالحاتٍ لم تره عين، ولا سَمِعت به أُذُن، ولم يخطر على قلب إنســان ... وهو ما عرفه المبارك بولس، أعيروني سمعكم دقيقةً؛ لأنكم ســوف تســـمعون الرســـول يقول بعدها مباشـــرةً: ''أعلنه الله لنا بروحه''، ولم يقف عند هذا التصريح، رغم أن كلماته تكفي لأنْ نعرف أن قوة الروح وعظمته هي من ذات قوة الآب وعظمته؛ لأن الروح من جوهر الآب والابن. ولكن الرســـول أكمل كلامه: ''لأن الروح يفحص كل شـــيء حتى أعماق الله''. ولأن بولس يريد أن نصـــل إلى معرفة كاملة يقينية عن طريقِ تشـبيهٍ من واقع الحياة البشـرية، أضـاف: ''لأن مَن مِن الناس يعرف أمور أي إنسان إلا روحه الساكن فيه ... هكذا أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله'' (١كورنثوس ٢: ٩-١٠). وفي هذه الكلمات نري تعليماً كاملاً بسـيطاً؛ لأن كل ما يشـغل عقل أي إنسـان لا يعرفه أحدٌ آخر سـواه وحده. هكذا كل ما عقل الله، لا يعرفه أحدٌ سـوى الله. وبهذا التشـبيه الكامل الصـحيح الذي اسـتعمله الرسـول، يتضـح أنه أراد أن يقول لنا: لا يوجد إنســـان لا يعرف ما في عقله. هكذا الله، فإن الروح القدس يعرف كل الأمور التي تخص الله. وبهذا الوضوح الشديد أكَّد لنا الرسول أن الروح القدس من ذات جوهر الآب. وما ذكرته الآن يكفي لتعليم الذين يتجاســـرون على مقام الروح القدس الإلهي، ويعلِّمون ضد الكلمات التي أعطاها الروح القدس نفسه.

أُريد أن أوجِّه كلمةً إلى محبتكم عن ســـبب وجود المواهب الثمينة التي أنعم بها الرب علينا، ليس بعد صعوده مباشرةً، بل بعد عدة أيام. لماذا فعل الرب ذلك؟ لقد قصد الرب أن يســـتقر التلاميذ بعض الوقت، حتى إذا ما أرســـل نعمة الروح القدس يفهمون

الغرض والهدف الذي جاء لأجله. والبشر لا يعرفون كيف يقدِّرون الأشياء الثمينة التي في أيديهم، أو يعطون لها مكانةً لائقةً في حياتهم إلا إذا اختبروا وذاقوا الحرمان منها، أو ما هو مضاد لها. وعلى سبيل المثال لكي يكون كلامي واضحاً، الذي يتمتع بصحة جيدة لا يمكنه أن يرى أو يعرف عِظم نعمة الصحة إلَّا إذا مَرِض، وفي مرضه فقط يكتشف قيمة الصحة. كذلك الذي يتمتع بنور النهار، لا يشعر بحاجته إلى مصباح ولكن متى جاء الليل شعر بحاجته الشديدة إلى مصباح. وهكذا الحرمان أو اختبار الأمور المضادة، يعلمنا قيمة ما نتمتع به.

لهذا السبب أُعجِبَ الناسُ بهم، وصار الرسل مشهورين من الخيرات، وعندما كان معهم، مرَّ الوقتُ في هناءٍ ومسرة. وكان الناس في فلسطين يرون التلاميذ كأنوارٍ عجيبةٍ؛ لأنهم كانوا يقيمون الموتى، ويشفون المرضى ويطهرون البُرَّص، ويُخرِجون الشياطين ويصنعون أموراً عجيبة أخرى.

لهذا السبب، أثناء وجود الرب مع تلاميذه، تمتعوا بعددٍ لا يُحصى جداً، ولذلك سمح الرب يسوع أن يحرمهم من هذه القوة العظيمة التي رافقتهم وساعدتهم، حتى إذا حُرِموا منها، تعلَّموا قيمة الصلاح الذي رافق حضور هذه القوة. وإذا عَرِفوا عِظم النعمة التي تمتعوا بها، سيشتاقون إلى قبول نعمة الروح القدس. لقد كان المسيح يعزِّيهم إذا حزنوا، ولكن بعد صعوده كانوا سيحزنون أكثر لأنهم فقدوا سيدهم. ولذلك أشرق عليهم من فوق بأشعة نوره. ورفع الذين كانوا منحنين وشتَّت ظلام حزنهم وأنهى عدم ثقتهم.

وعندما سمع التلاميذ صوت الرب: "تلمِذوا جميع الأُمم" (متى ٢٨: ١٩)، شعروا بالضياع والخوف، بل لم يعرف أيٌّ منهم إلى أي مكان في العالم سيذهب. ولكن عندما نزل الروح القدس بشكل ألسنة، اختار لكلِ واحدٍ مكاناً في العالم لكي يذهب إليه ويبشر، وحدَّد هذا بنوع اللغة واللسان الذي تكلم به كل واحد منهم.

ولسببٍ آخر جاء الروح القدس في شكل ألسنة؛ لكي يعيد إلى الأذهان ما حدث في الماضي عندما سادت الكبرياء على حياة الناس، وظنوا أنهم سيرتفعون إلى

السماء ببناء برج بابل. وهناك بسبب الألسنة انقسموا لأن كلَّ واحدٍ منهم تكلَّم بلغةٍ مختلفة، وبهذا انتهت خطتهم الشريرة (تكوين ١١). ولكن الروح نزل على الرسل في شكل ألسنة نار لكي ما يوحِّد العالم المنقسم[١]، وبهذه النعمة يجعل الكل واحداً. وهكذا حدث شيءٌ جديدٌ وعجيب. ففي الماضي مزَّقت الألسنةُ العالَمَ لتقضي على هدفٍ شرير، أي أن الألسنة كانت السبب في الانقسامات، أما الآن، فإن الألسنة توحِّد العالم كله وتجمع كل المنقسمين في اتفاق.

وكان ظهور الروح القدس أيضاً في شكل ألسنة نارية يوضِّح أن أشواك الخطية فينا قد تكاثفت وصارت مثل غابةٍ؛ لأننا مثل الأرض الخصبة الغنية التي إذا ما تُرِكَت بدون زراعةٍ، تنتج قدراً هائلاً من الأشواك. وعلى نفس المثال، فإن طبيعتنا الإنسانية التي خُلِقَت أصلاً صالحةً لكي تُزرع فيها الفضائل، لم يمر فيها المحراث الصالح لمحبة الله، ولا أُلقيت فيها بذار معرفة الله، فكانت النتيجة أن نما عدم التقوى مثل الأشواك والطفيليات الأخرى غير النافعة. وعندما تنمو الأشواك والأعشاب غير النافعة بكثافةٍ نعجز عن رؤية التربة نفسها. وهكذا اختفت كرامة النفس الإنسانية ونقاوتها، إلَّا أن الكرَّام المهتم بالطبيعة الإنسانية (يوحنا ١٥: ١)، أضرم نار الروح القدس في الأشواك، فطهَّر الطبيعة الإنسانية وأعدَّها لكي تستقبل البذار الصالحة.

٣- أما الآن وقد أخذنا كل الصالحات بمجيء الروح القدس، أرجوكم -من أجل عظم كرامة ما نلناه من أمور صالحة ازدادت ومُنحت بغزارةٍ- أن نحتفل بالعيد، ليس بإعداد الزينات في المدينة، بل بتقديس نفوسنا. وليس بإعداد الكعك ونقشه، بل بفرح نفوسنا وارتداء ثياب الفضيلة؛ لأنه بمثل هذه الأمور، سوف نأخذ نعمة الروح القدس وبعد ذلك ثماره.

ما هي ثمار الروح القدس؟ لنسمع إجابة بولس الرسول: "ثمار الروح المحبة

(١) ترتل الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية ذلك الحن الذي يعكس بكل تأكيد عبارات ذهبي الفم: "لما نزل العلي وبلبل الألسن، قسم الأُمم. وحين وزَّع الألسن النارية دعا الجميع إلى الوحدة، فلنمجد الروح القدس باتفاق الأصوات".

الفرح السلام" (غلاطية ٥: ٢٢). ما أدقُ هذه التعبيرات، وما أعظم توافقها. يضع الرسول المحبة قبل كل شيء، ثم باقي الأمور بعد ذلك. الأساس أولاً، ثم يبني عليه بعد ذلك. يبدأ بالينبوع، ثم يشق الطريق للقنوات. ولا يمكن أن يكون الأساس هو الفرح؛ لأن ذلك سيجعل اهتمامنا بسعادتنا وصحتنا الروحية يأتي قبل الاهتمام بالآخرين. فالفرح لا يُعطى إلا إذا ثبَّت أساس المحبة؛ لأن المحبة هي الجذر، أنها ينبوع، وهي أُم كل الأشياء الصالحة. ولأن المحبة هي الجذر، فمنها تنمو كل فروع الفضيلة التي يفوق حصرها. وكينبوعٍ تنبع منها قنواتٌ عديدة، وكأُمٍ تجمع في حضنها كل الذين لهم علاقة بها. وهذا ما فهمه بولس المبارك وعبَّر عنه أنه كمال الناموس: "المحبة هي كمال الناموس" (رومية ١٣: ١٠). ولقد أعطانا الرب نفسه حقاً العلامة التي لا تخطئ، والتي تبيِّن لنا مَن هو تلميذه، وهذه العلامة هي المحبة؛ لأنه قال: "بهذا يعرف جميع الناس أنكم تلاميذي إذا كان لكم حبٌّ بعضكم لبعض" (يوحنا ١٣: ٣٥). لذلك، أتوسل إليكم أن نتمسك بالمحبة، وبها نحتفل بالعيد، لأنه حيث المحبة، فإن أقبح الأخطاء تختفي وتصبح كلا شيء، بل حتى الظنون نفسها تنتهي؛ لأن المحبة -كما قال الرسول: "لا تحسد ولا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبِّح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم" (١كورنثوس ١٣: ٤-٥).

المحبة لا تقبل الشر ولا أعماله ضد الجار. وحيث تملك المحبة، لا يوجد قايين قاتل أخيه. انزعوا ينبوع الحسد، وبذلك تنزعون كل مصادر الشر. اقطعوا الجذر لأنكم في نفس الوقت ستقطعون ثماره.

أنا أُشير إلى الحسد بنوعٍ خاص؛ لأنني مشغولٌ بالحاسدين أكثر من المحسودين، لأن الحاسدين هم الذين يدمرون أنفسهم ويعانون أكثر من الكل. وإن كان المحسودون يتألمون من الحاسدين، إلَّا أنهم ينالون أكاليل مجد، مثل هابيل الصديق الذي لانزال نذكر بكل إكرام طريقة موته وأمجاده. وحتي بعد موته، كان دمه لا يزال يصرخ يعلن إثم قاتله (تكوين ٤: ١٠). أما الحاسد، فعلي الرغم من أنه عاش، إلا أنه عاش في خوفٍ وفي حزنٍ، وبذلك أخذ أجرة عمله. أما الذي ذُبِحَ فقد رقد في سلام، وبعد موته أصبح

شـــهادةً كاملةً للبر (عبرانيين ١١: ٤). وكما أن خطية قايين بعدما عاش جعلته تعيســاً، كذلك برُّ هابيل جعله بعد موته رجلاً كاملاً.

علينا أن نقدم شـهادةً عظيمةً هنا على الأرض وفي السـماء، وهي أن نجمع بفرح شـديد ثمار هذا العيد. ليخلع كلُّ واحدٍ رداء النفس المتسـخ، وبوجه خاص رداء الحسـد. وإذا ظننتم أنكم حصلتهم على فضائل واستحقاقات كثيرة، إلَّا أنكم ستفقدون الكل إذا لصقت بكم هذه اللطخة الرهيبة، أي لطخة الحسد.

يا ليتنا كلنا نهرب منها، لا ســـيما الذين من خلال نعمة المعمودية خلعوا ثياب خطاياهم القديمة، والآن يلمعون ببهاء أكثر من الشـمس. إني أُناشـدكم يا من سـجَّلتم أسماءكم اليوم[١] وصـرتم أبناء بالتبني، ولبسـتم الثياب البيضـاء، أن تحفظوا بكل عنايةٍ بهاء نفوسـكم الذي تقفون به بيننا كمَن يرتدون ثياباً جديدةً. وأن تغلقوا كل منافذ الشـر التي تواجهكم، لكي تجمعوا بوفرةٍ أفراحَ نعمة الروح القدس.

البعضُ سيجمع ثلاثين، والبعض ستين، والبعض مائة، أي الكمال. ولكن الكل سـيُوهَبون أن يقابلوا الملك بثقةٍ عندما يأتي من السـماء ليوزِّع الميراث الذي لا يمكن أن تصـفه لغةٌ بشـرية لمن عاشـوا الحياة وختموها بالبر في المسـيح يسـوع ربنا. الذي له السُّبحُ والمجد إلى الأبد. آمين.

---

(١) تسجيل الأسماء في (سجلات الكنيسة) وتسمى في الطقس "سفر الحياة". وكان لها طقس خاص لا زالت آثاره واضحةً في خدمة المعمودية في الكنيسة القبطية.

القديس أمبروسيوس

الروح القدس[١]

١- مَن ذا الذي يتجاسر وينكر أن للأقانيم الثلاثة اسما واحداً، خصوصاً وأن وحدتهم في كل ما يفعلونه واضحةٌ؟ ولماذا أحتاج لتأكيد أن لهم اسماً واحداً، والأمر واضح من شهادة الصوت الإلهي الذي يخبرنا بكل وضوح إن للآب والابن والروح القدس اسماً واحداً؟ لأنه مكتوب: ''اذهبوا وتلمِذوا جميع الأُمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس'' (متى ٢٨: ١٩). ''باسم'' وليس ''بأسماء''. ولذلك ليس للآب اسمٌ، وللابن اسمٌ آخر، وللروح القدس ثالث، بل اسمٌ واحدٌ لأن الله واحدٌ، وليس له أسماء متعددة لأنه لا يوجد إلهان أو ثلاثة، بل ''إلهٌ واحد'' (١كورنثوس ٨: ٤). والاسم الواحد يعني أن الجوهر الإلهي واحد والقوة الإلهية واحدة. ولهذا السبب لم يأت الابن باسم آخرٍ، ولا جاء الروح القدس باسمٍ مختلف، بل كما قال الرب نفسه: ''أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه'' (يوحنا ٥: ٤٤).

وتخبرنا الاسفار بأن اسم الآب هو اسم الابن أيضا كما هو مكتوب في سفر الخروج أن الرب نفسه قال: ''أُجيز كل صلاحي قدامك وأنادي باسم الرب قدامك'' (خر ٣٣: ١٩). والرب يقول هنا إنه سينادي باسم الرب، أي باسمه، وهو ''الرب''، وهو ذات اسم الآب والابن.

ولما كان للآب والابن اسمٌ واحدٌ، آمِن بأن نفس الاسم الواحد هو للروح القدس أيضاً؛ لأن الروح القدس يأتي باسم الابن كما هو مكتوب: ''الباركليت الروح

---

(١) الفصول ١٣ – ١٦ من كتاب الروح القدس للقديس أمبروسيوس، مجموعة الآباء اللاتين، مجلد ١٦: ١٠٤.

القدس الذي سيرسله الأب باسمي سوف يعلمكم كل شيء". والذي يأتي باسم الابن، فهو بالحقيقة يأتي باسم الآب أيضاً، لأنه واحدٌ هو اسم الآب والابن والروح القدس. ولذلك قيل: "لا يوجد اسمٌ آخر تحت السماء أُعطي للناس به ينبغي أن نخلص" (أعمال ٤: ١٢). والرب يسوع المسيح جاء بالاسم الواحد، بينما المضاد للمسيح سيأتي باسمه هو كما هو مكتوب: "أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه" (يوحنا ٥: ٤٣). وهذا يعلِّمنا أنه لا يوجد انقسام بالمرة بين الآب والابن والروح الباركليت، لأن للكل اسماً واحداً هو اسمُ الله. ويمكننا أن نلاحظ أنه لنفس السبب دُعي الابن "الباركليت" مثل الروح القدس. وعن هذا قال الرب يسوع نفسه في الإنجيل: "سوف أسأل الآب وهو سيعطيكم معزِّياً آخر روح الحق الذي يمكث معكم إلى الأبد" (يوحنا١٤: ١٦). وقال: "معزِّياً آخر" لئلا نفهم أن الروح القدس هو الابن؛ لأن وحدانية الآب والابن والروح القدس، ليست في الاقنوم –حسب فوضي سابليوس[1]– بل في الاسم، أي في الجوهر الإلهي، وهكذا الابن باراكليت والروح القدس باراكليت آخر؛ لأن يوحنا يقول عن الابن في هذه الكلمات: "وإن أخطأ أحدٌ فلنا باراكليت عند الآب يسوع المسيح البار" (١يوحنا ٢: ١). وحينما يكون الروح باراكليت، يكون الابن أيضاً باراكليت، وكما يقول الرب في (يوحنا ١٤: ١٦) إن الروح سيبقي مع المؤمنين إلى الأبد، وكذلك يقول إنه هو (الابن) سيكون معنا أيضاً إلى الأبد: "ها أنا معكم كل الأيام وحتى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ٢٠).

واحدٌ هو الابن والروح. واحدٌ هو اسم الثالوث، وواحدٌ هو حضوره غير المنقسم.

وكما رأينا أن الابن يُدعى باراكليت، هكذا سوف نرى أن الروح يُدعى الحق مثل الابن، كما هو مكتوب في رسالة يوحنا: "والروح هو الحق" (١يو٥: ٦). وهو لا يُدعى فقط روح الحق، بل الحق نفسه تماما مثل الابن يُدعى الحق كما قال هو: "أنا هو

(١) سابيليوس هرطوقي من القرن الثالث، كان يعلِّم بأن الآب والابن والروح القدس هم ثلاثة ظهورات لأُقنومٍ واحد.

الطريق والحق والحياة'' (يوحنا ١٤: ٦).

٢- الأقانيم الثلاثة، كلٌّ منهم يسمى "النور" في الأسفار المقدسة.

لماذا أريد أن أُثبت أن الآب نور، وكذلك الابن نور، والروح القدس نور؟ لأن هذا بدون شك يثبت وحدانية الله، والمساواة في الكرامة الإلهية. وكما أخبرنا يوحنا: ''اللهُ نورٌ وليس فيه ظلمة البتة'' (١يوحنا١: ٥). والابن هو نور: ''فيه كانت الحياة والحياة نور الناس'' (يوحنا ١: ٤). وكما هو واضحٌ، أن يوحنا الإنجيلي يتحدث عن ابن الله ويقارن بينه وبين يوحنا المعمدان: ''لم يكن هو النور بل ليشهد للنور. كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيا إلى العالم'' (يوحنا١: ٨- ٩). ولأن الله الآب هو النور، كذلك ابن الله هو النور الحقيقي. وهذا معناه أن ابن الله هو إلهٌ حقيقي[١]. ويمكن أن نقرأ في موضع آخر عن الابن أنه النور: ''الشعب الجالس في الظلمة أبصر نوراً عظيماً'' (أشعياء ٩: ٢). واذا أضفنا إلى هذا، الكلمات التالية: ''عندك ينبوع الحياة وبنورك نعاين النور'' (مزمور ٣٦: ٩)، أي عندك أيها الآب الضابط الكل ينبوع الحياة في ابنك ونورك، أي الابن الذي سنري فيه نور الروح القدس؛ لأن الابن قال عن الروح القدس: ''اقبلوا الروح القدس'' (يوحنا ٢٠: ٢٢). وهو أيضاً، أي الروح القدس الذي قيل عنه: ''وكانت قوة تخرج منه'' (لوقا ٦: ١٩). ومَن يجرؤ على الشك في أن الآب هو النور، عليه أن يشرح لنا معنى هذه الكلمات التي قيلت عن الابن: ''بهاء مجده'' (عبرانيين ١: ٣). فالابن هو بهاء مجد الأب، وهو مع الأب دائما يشع ببهاء مجد الآب، وليس ببهاء مجد آخر. وإذا كان الابن يشع ببهاء مجد الآب، فهو يشع ببهاء مجده[٢].

وأشعياء يعلن أن الروح القدس ليس نوراً فقط، بل نارٌ أيضاً: ''ويصير نور

---

(١) كما نقول في قانون الإيمان: "نورٌ من نور. إلهٌ حق من إلهٍ حق".

(٢) كان القديس أثناسيوس قبل أمبروسيوس يستخدم عبرانيين ١: ٣ لتأكيد أن الآب والابن هما واحد، أي من جوهر واحد لأن النور لا يمكن أن يوجد بدون إشراق، ولا المجد بدون بهاء.

اسرائيل ناراً والقدوس لهيباً'' (١٠: ٧). ولهذا السبب يدعوه الأنبياء ناراً متقدة. كما أن قوة اللاهوت تظهر تحت ثلاثة مظاهر هي النور والنار والقداسة. ومن طبيعة اللاهوت أن يقدِّس، وأن يعطي استنارةً، وهي صفة النور والنار معاً.

والظهور الإلهي يتم دائماً بشكل نار: ''إلهنا نارٌ آكلة'' كما أعلن موسي (تثنية ٤: ٢٤). وهو الذي رأي النار مشتعلةً في العليقة، وسمع الرب يتكلم من وسط اللهيب قائلاً: ''أنا الرب إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب'' (خروج٣: ١٥)، وكان الصوت يأتي من النار المحيطة بالعليقة دون أن تحترق العليقة، رغم أنها كانت مشتعلة. وبهذا ''السر'' أعلن لنا الرب أنه جاء لكي يسكب النور والنار على أشواك الجسد، وأنه لن يحرق الخطاة، بل ينير الخطاة، وأنه سوف يعمِّد بالروح القدس ونار (مت ٣: ١١)، فيعطينا النعمة ويحرق خطايانا فقط.

وبعد ذلك ظهر معنى ''تدبير الله'' وظهوره في العليقة في النار عندما نزل الروح القدس على المؤمنين بشكل ألسنة نار، لأننا نقرأ في سفر الأعمال: ''وفجأة جاء صوتٌ من السماء مثل هبوب ريح عاصف وملأ كل البيت الذي كانوا مجتمعين فيه وظهرت لهم ألسنةٌ منقسمة كما لو كانت من نار'' (٢: ٢-٣). وبذلك تم السر وظهر معناه بشكل واضح. وتوجد إشارة أخرى لها ذات الدلالة في الحادثة الخاصة بجدعون الذي كان يستعد لإنزال الهزيمة بالمديانيين وأمر ٣٠٠ رجل أن يأخذوا لهم جراراً وأن يحملوا المشاعل داخل الجرار وأبواقاً في أياديهم اليمني (قضاة ٧: ١٦)، وهكذا تمتَّع هؤلاء بالرمز فقط، بينما أخذنا نحن مع الرسل، الحقيقة. فأجسادنا هي الجرار المصنوعة من الطين. ولكنها سوف تشتعل بنار النعمة الروحية وتشهد بالاعتراف بآلام ربنا يسوع المسيح بصوتٍ أوضح من صوت البوق.

فمن ذا الذي يجسر على الشك في مقام الروح القدس؟ لأنه عندما يظهر اللاهوت بشكلٍ منظور، يكون مع ظهوره نعمة الروح القدس.

ومن النصوص السابقة لا نستنتج انقسام اللاهوت، بل وحدته. وكيف تنقسم

القوة الإلهية وعمل الأقانيم معاً هو النعمة الواحدة التي تعطي لكل إنســـان؟ ولا تعطى نعمة في الأسرار إلا إذا سبقها غفران للخطايا.

ما هي النار الإلهية؟ أنها ليســـت مثل اللهب الذي نشـــاهده عندما يحترق الخشـــب أو الأعشـــاب في غابة من الغابات. ولكن هذه النار تشـــبه النار التي تمحِّص الذهب وتجعل كل شيءٍ صالحاً يُشرق بلمعان أكثر، وفي نفس الوقت تحرق الخطية. هذه النار في النصـوص السـابقة هي عن الروح القدس الذي دُعي أيضـاً: ''نور وجه الرب''، أي نور الروح القدس كما هو مكتوب: ''أشـــرق علينا نور وجهك يا رب'' (مزمور ٤: ٣). وهذا النور نُختَم به، وهو الختم الروحي الذي عندما نؤمن، نُختَم بروح الموعد القدوس (أف ١: ١٣). وكما أنه هو نور الوجه الإلهي، هو أيضاً النار الآكلة التي تحرق كل شيء أمام وجه الله –كما هو مكتوب: ''نارٌ قدامه تأكل'' (مزمور ٥٠: ٣).

٣– الروح القدس هو الحياة

قلنا إن الآب هو النور، والأبن هو النور، والروح القدس هو النور. لنؤمن أيضـــاً أن الآب هو الحياة، والابن هو الحياة، والروح القدس هو الحياة. لأن يوحنا قال: ''الذي كان من البدء، الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي لمســـناه بأيدينا من جهة كلمة الحياة. لأن الحياة أُظهِرت ونحن قد رأينا وشـــهدنا لكم عن الحياة الأبدية التي كانت عند الآب'' (١يوحنا ١: ١–٢). والكلمة هو الحياة تماماً مثل الآب، وكلاهما يســـمى الحياة. أليس كلمة الله هو كلمة الحياة؟ وكذلك يُدعى الابن روح الحياة –كما هو مكتوب: ''روح الحياة في البكرات''[١] (حزقيال ١: ٢٠). وكما أن الابن كلمة الحياة هو الحياة، كذلك روح الحياة –أي الروح القدس– هو حياة. لنؤمن أن الآب هو ينبوع الحياة، وكذلك الابن ينبوع الحياة حسب الشهادات الكثيرة في الأسفار المقدسة. والابن هو ينبوع الحياة عند الآب، كما يقول المزمور: ''لأن عندك ينبوع الحياة. بنورك نرى النور''

(١) الحيوانات غير المتجسدة تعني الحياة؛ لأن كلمة "حيوان، وحياة" هي واحد، ولا تعني بالمرة كلمة "حيوان" بهيم بصورة مطلقة، ولكن الكائن الحي.

(مزمور ٣٦: ٩) والروح القدس هو ينبوع الحياة عند الابن لأنه حيث الروح فهناك حياة. والروح القدس هو الحياة حسب قول الرب: ''الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة'' (يوحنا ٦ :٢٤). وحيث الروح هناك حياة، وحيث الحياة فهناك الروح القدس.

والينبوع الذي نتحدث عنه ليس ينبوع مياه مخلوقة، وإنما ينبوع النعمة الإلهية، أي ينبوع الروح القدس؛ لأنه هو المياه الحية كما قال الرب نفسه: ''لو كنتِ تعلمين عطية الله ومَن هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشرب، كنت أنت طلبتِ منه لكي يعطيك مياهاً حيَّةً'' (يوحنا ٤: ١٠). وإلى هذه المياه الحية اشتاقت نفس داود: ''كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه تشتاق إليك نفسي يا الله'' (مزمور٤٢ :١). والقلب يشتاق إلى ينبوع هذه المياه، ولا يعطش أبداً لسُم الحية. لأن مياه النعمة حية، وبها تتطهر أعماق النفس الإنسانية وتُغسل من خطاياها، ومن أدناس خرافات الوثنية.

٤- الروح القدس هو النهر العظيم

مَن يقدر ويتجاسر على القول بأن المياه المتدفقة هي جزءٌ محدودٌ انفصل عن الينبوع بعد أن نبع منه؟! أو يستنتج أن الروح القدس محدود طالما أنه ينبع، أو أنه أقل مقاماً من مقام الآب والابن؟! علينا أن نحذر من الأذى الذي يصيب كل مَن يقارن بين المخلوقات واللاهوت؛ لأن المخلوقات لا يمكن أن توضح بكفاية ما يخص الله.

يا ليتنا نفهم أن الروح القدس لم يُدعَ ''مياه حية'' فقط، بل ''أنهار المياه''؛ لأننا نقرأ: ''من جوفه تخرج أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح القدس الذي سيأخذه كل الذين آمنوا به'' (يوحنا ٧: ٣٨ - ٣٩).

الروح القدس ليس نهراً فقط، بل الأنهار العظيمة التي نبعت من يسوع ونزلت على كل الأرض. وعنه قال أشعياء: ''هأنذا أُدير عليها سلاماً كنهر وكسيل جارف سيكون مجد الأمم الذي **منه سترضعون**'' (٦٦: ١٢). لأنه يتدفَّق كنهر قوي إلى الأبد. ولا يندفق في رفق، بل أحياناً يندفع مثل السيل الجارف، وسواء تدفَّق مثل النهر أو اندفع

مثل السيل فهو لا ينقص. وقال عنه داود: ‘‘أنهار الله تفرح مدينة الله’’ (مزمور ٤٨: ٥). ومدينة الله أورشليم لا ترتوي بتدفق نهر أرضي، **بل بتدفق نهر المياه الحية من ينبوع الحياة، أي الروح القدس الذي منه نمتلئ حتى آخر قطرة نحتاجها**. وقد سُرَّ أن يسكب بفيض على العروش والسيادات والقوات والملائكة ورؤساء الملائكة، **ولكنه سُرَّ بالأولى أن يسكب علينا نحن بفيضٍ أكثر، وبقوة،** حاملاً معه المواهب السبعة الروحية. وكما يحدث على الأرض، إذا امتلأ نهرٌ، فهو يفيض حتى يُغرق شواطئه، **وهكذا فاض الروح القدس علينا وعلى المخلوقات السماوية، ولقد روى نفوسنا العطشانة مثل الأرض المشتاقة إلى المياه.**

لا تشك أن يوحنا قال: ‘‘أنهار’’ (يوحنا ٧: ٣٨)، وفي موضع آخر قال: ‘‘أرواح الله السبعة’’ (رؤيا ٥: ٦)؛ لأن مثل هذه التعبيرات رمزية. ورقم "سبعة" يعني كمال القوة الإلهية للروح القدس. كما قال أشعياء: ‘‘روح الحكمة. روح الفهم. روح القوة. روح المشورة. روح المعرفة. روح التقوى. روح مخافة الرب’’ (١١: ٢). فالنهر إذن واحد، ولكن القنوات التي تخرج منه، أي العطايا الروحية متعددة. هذا هو النهر الذي يتدفق من ينبوع الحياة.

لا يَمِلْ قلبك إلى الضلال، لأنه في الواقع المادي، يوجد فرقٌ بين الينبوع والنهر، ولكن إذا قدَّم الكتابُ أمثلةً وتشابيه متعددةً ومختلفةً، فلكي لا يفقد العقل المعني بسبب فقر اللغة البشرية وضعفها. لأنه مهما كان تصوُّرُك للنهر، فهو ينبع من الينبوع، أي أن المياه واحدة. وهذا يعني أن الجوهر واحد، ولكل الأقانيم الجمال الإلهي الواحد. فلنعترف بأن الروح القدس هو واحدٌ في الجوهر مع ابن الله ومع الله الآب، الكل واحدٌ في الجوهر وفي البهاء والمجد.

ولنقدم نحن من جانبنا ما نراه ملائماً من تشابيه تدل على وحدة الجوهر بدون أي خوفٍ من سؤال عن درجات أو اختلاف المقام. لاسيما في هذا التشبيه الموجود في الأسفار، يقول ابن الله: ‘‘مَن يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية’’ (يوحنا ٤: ١٤). هذا الينبوع

هو النعمة الروحية بدون شـــك، وهو النهر الذي ينبع من الينبوع الحي. ولكن كما هو واضـــح من كلمات الرب نفســـه أنه الينبوع الحي. ويمكن أن نري وحدة المجد الإلهي من كلمات المسيح، ولا يقدر أحد أن ينكر أن المسيح نفسه ينبوعٌ مثل الروح القدس؛ لأن أشعياء قال: ''هأنذا أُدير عليها سلاماً كنهر وكسيل جارف'' (٦٦: ١٢). ومَن يستطيع أن ينكر أن ابن الله هو نهرُ الحياة الذي منه نبعت كل قنوات الحياة الأبدية؟

النعمة الروحية هي المياه الحية، ومَن يســـتطيع أن يجعلها تتدفق في داخلي مثل ينبوعٍ، سوى المسيح؟ يا ليتها تنبع في داخلي **ويا ليته (المسيح) يتدفق مني لأنه واهب الحياة الأبدية**. يا ليت هذا الينبوع يسكب علينا ماءه، ونحن بدورنا علينا أن لا نسكبه بعيداً عنا. لأن الحكمة يقول: ''اشـــرب مياهاً من وعائك، ومياهاً جاريةً من بئرك، لا تفض ينابيعك إلى الخارج، سواقي مياه في الشوارع'' (أمثال ٥: ١٥- ١٦). كيف أحفظ هذه المياه لكي لا تتسرب أو تختفي؟ **وكيف أحفظ وعائي سليماً لكي لا تنفذ منه مياه الحياة الأبدية من الشقوق التي تصنعها الخطية؟ علمنا يا رب كل هذا كلما علمت تلاميذك** وقلت لهم: ''لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يأكلها الصـــدأ والعث وينقب اللصوص ليسرقوها'' (متى ٦: ١٩) وهو يقصد أن الروح الشرير هو اللص الذي لا يستطيع أن يسرق من الذين يسيرون في نور الأعمال الصالحة. ولكن إذا كان إنسانٌ قد وجد مسرته في الكلام وفي الشهوات الأرضية أو المتع الزائلة، سيسرق منه الروح الشرير حتى بذار الفضيلة. ولهذا السبب يقول الرب: ''اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يؤثر عليها الصدأ والعث ولا يملك اللصوص أن ينقبوا ليسرقوا'' (متى ٦: ٢٠). والصدأ والعُث هما الفجور والشهوات وحياة الترف وكل ما يعتِّم بهاء نفوسنا بأدناس حياة العار. والصـــدأ هو أريوس وكل الهراطقة الذين بعدم تقواهم يمزِّقون ثوب المســـيح المقدس، أي الكنيسة، ويشتاقون لبعثرة القوة الإلهية الواحدة غير المنقسمة، ويقرضون بأسنانهم حجاب الإيمان الثمين[١].

(١) أي تعرية الإيمان وإخضاعه للمقاييس العقلية، وهي بلا شك إحدى أخطار الهرطقات، ذلك أن الهرطقات تبدأ

نحن كلنا طينٌ فقير يميل بسرعة إلى سماع الشر، ولكن لا يجب أن يقل أحدٌ للخزَّاف: "لماذا صنعتني هكذا؟" (رومية ٩: ٢)؛ لأنه وإن كنا آنيةً وضيعةً، لكن يمكن لهذه الآنية الوضيعة أن تكون للكرامة أو للهوان.

إذا كنت تطلب يسوع، تخلَّ تماما عن المياه الراكدة في خزاناتك، لأن يسوع يجلس عند البئر وهناك وجدته السامرية. وعندما آمنت به طلبت منه الماء الحي (يوحنا ٤: ٦). ورغم أنه كان يجب أن تأتي مبكراً ليسوع، لكن حتى وإن تأخرت عنه حتى صارت الساعة السادسة[١] من النهار، تعال وقد تجد يسوع متعباً ليس من الرحلة، وإنما من كثرة التفكير فيك والاهتمام بأمرك، فإن عدم إيمانك هو الذي أتعبه. لكنه لن يغضب إذا جئت الآن، بل سيطلب منك أن تشرب، وسوف يعطيك لتشرب، بل سيشرب هو معك. وماذا سيشرب معك سوى خلاصك؟! سوف يشرب من محبتك، فقد شرب الكأس، أي الآلام التي بها فداك من خطاياك، وأنت إذا شربت دمه المقدس من الكأس، سوف يخمد فيك العطش إلى هذا العالم. لقد استحق إبراهيم أن يجد الكثير من الخيرات بعد أن حفر البئر[٢]. وكذلك اسحق وُهِب أن يقابل زوجته عند البئر (تكوين ٢٤: ٦٢). ورفقة رمز الكنيسة[٣] التي خطبها الرب عند البئر. والمؤمن دائماً عند البئر، أما غير المؤمن فهو عند المياه الراكدة.

دائماً بمحاولة شرح أسرار الإيمان بطريقة عقلية.

(١) أي منتصف النهار حسب التوقيت القديم، وهي الساعة التي تقابل فيها الرب يسوع مع السامرية. وإشارة الإنجيل إلى الوقت تعني عدم الإسراع في لقاء يسوع.

(٢) إشارةً إلى طلب الحصول على الروح القدس.

(٣) رفقة إشارة إلى الكنيسة التي خطبها إسحق (وهو رمزٌ للمسيح) عند البئر، أي الروح القدس. ولا تزال نصوص صلوات الإكليل في الكنيسة الشرقية تشير إلى زواج اسحق ورفقة عند البئر –وهما نموذج الزواج الحقيقي– إلى الرب يسوع والكنيسة وهو ما يتطلع إليه المؤمن في علاقته بزوجته.

القديس أثناسيوس الرسولي

الرسالة الخامسة إلى سرابيون

عن التجديف على الروح القدس[١]

بخصوص كلمات الإنجيل التي نبَّهتني إليها في خطابك[٢]، فإنني بضميرٍ صالحٍ (١بطرس ٣: ١٦)، أرجوك أن تغفر لي أنني أتهيب الاقتراب من كلمات الإنجيل؛ لأن انشغالي الشديد في البحث عن معناها سيؤدي إلى عدم قدرتي على الوصول إلى معنى كلمات الإنجيل العميقة. ولهذا السبب وحده، ظننت أنني سوف أتجاوز عن سؤالك وأكتفي بما كتبت عن الروح القدس من قبل. ولكن حتى لا ترغمني على الكتابة مرةً أخرى في نفس الموضوع، ضغطت على نفسي لكي أكتب القليل الذي أفهمه، والذي

(١) وهي الرسالة الخامسة من مجموعة رسائل القديس أثناسيوس عن الروح القدس. وهذا النص مأخوذ عن مجموعة الآباء اليونانيين، مجلد ٢٦: ٦٤٨ – ٦٦٧. وننوه إلى أنه سبق أن صدرت الرسائل الأربع لسرابيون عن الروح القدس عن مدارس الأحد بالجيزة، في ترجمة للقس مرقس داود عن الإنجليزية، ثم أعادت مكتبة المحبة بالقاهرة طباعتها. وقد قام مركز دراسات الآباء بالقاهرة بإعادة ترجمة الرسائل الأربع المشار إليها عن اللغة اليونانية، ونشرها في طبعةٍ أولى في عام ١٩٩٤. وقد ذكر المترجمان في تقديمهما لهذه الترجمة أن الترجمتين الإنجليزية والعربية المذكورتين بأعلاه تتوقفان في الرسالة الرابعة عند نهاية فصل ٧، أما الأصل اليوناني فيمتد بعد ذلك حوالي ٢٠ صفحة. وأن هذه التكملة للرسالة الرابعة في الأصل اليوناني كان قد ترجمها ونشرها بالعربية الدكتور جورج حبيب بباوي سنة ١٩٧٦ تحت اسم "الرسالة الخامسة إلى سرابيون عن التجديف عن الروح القدس"، ضمن كتاب "الروح القدس في بعض كتابات الآباء"، فقمنا بضم ترجمة الدكتور جورج المنشورة سنة ١٩٧٦ إلى الرسالة الرابعة في هذه الترجمة الجديدة لأن الأصل اليوناني يحتفظ بهما معاً في رسالة واحدة هي الرسالة الرابعة. كما سبق أن نقل هذه الترجمة أيضاً أبونا القمص متى المسكين ليشرح من خلالها مفهوم التجديف على الروح القدس كما يراه القديس أثناسيوس، أنظر كتابه عن القديس أثناسيوس، الطبعة الأولى، مايو ١٩٨١، ص ٦٤٠ وما بعدها.

(٢) وهي رسالة سرابيون إلى أثناسيوس، ولم يعثر أحد عليها، ولكن كما يبدو من الرد أن الرسالة كانت تتضمن السؤال عن التجديف عن الروح القدس.

تعلَّمته. ولو وصلت إلى إيضاح الموضوع، فسوف تشعر أنت بالرضا، أما إذا أخفقنا فسوف لا تلومنا لأنك تعلم حسن قصدنا، بل وضعفنا أيضاً.

هذه هي الكلمات التي تسأل عن معناها: بعد إجراء معجزات كثيرة كما ذكر الإنجيل قال الفريسيون: ''هذا الإنسان يُخرج الشياطين ببعلزبول رئيس الشياطين''. والرب الذي عرف أفكارهم قال لهم: ''كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب'' (متى ١٢: ٢٤ – ٢٥). وبعدها مباشرةً قال: ''إن كنت بروح الله أُخرج الشياطين، فقد جاء عليكم ملكوت الله[١]'' (متى ١٢: ٢٨). ثم ختم بقوله: ''كل خطية وتجديف يُغفَر أما التجديف على الروح القدس فلا مغفرة له، لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي أيضاً'' (متى ١٢: ٣١ –٣٢).

ومن هنا جاء سؤالك: لماذا يُغفَر التجديف على الابن؟ ولماذا لا يغفر التجديف على الروح القدس، لا في هذا الدهر، ولا في الدهر الآتي أيضاً؟

لقد قرأتُ ما كتبه الآباء، وبالذات الحكيم والمجاهد أوريجينوس، والعجيب المجاهد ثيئوغنوستس[٢]. واطَّلعت على كتبهم لأرى ماذا قالوا بخصوص هذا الموضوع. كلاهما قال إن التجديف على الروح القدس يحدث عندما يعود الذين حصلوا على نعمة الروح القدس في المعمودية إلى الخطية. ولذلك يتفق كلاهما مع الآخر على عدم وجود مغفرة، مستندين إلى ما ذكره بولس في رسالته إلى العبرانيين: ''إنه من المستحيل لمن استنيروا..'' (عبرانيين ٦: ٤ –٦). عند هذه النقطة كلٌّ منهما يتحدث مثل الآخر تماماً، ولكن بعد ذلك كلٌّ منهما له رأيه الخاص.

---

(١) علينا أن ندرك العلاقة بين ملكوت الله والروح القدس. ذلك أن الوعد بالعهد الجديد في حزقيال (٢٧: ٢٦)، هو وعد بسكنى الله في وسط شعبه وفي داخل كل فرد. وبذلك فمجيء الروح القدس وسكناه فينا هو تأسيس الملكوت وإعلانه بقوة. الملكوت هو أن يملك الله ويمارس سلطانه. وهل يمكن أن يحدث هذا إلا في حالةٍ واحدة، وهي سكنى الآب والابن والروح القدس فينا بالحق والفعل (يو ١٤: ٢٣)؟

(٢) أحد علماء مدرسة الإسكندرية، وكان معاصراً للعلامة أوريجينوس.

يشـــرح أوريجينوس ســـبب دينونة هؤلاء بهذه الكلمات: ''الله الآب يحل في كل شـــيء ويضـــبط كل الكائنات الحية وغير الحية، أي التي لها نعمة العقل. أمَّا الابن فهو يشـــمل بقوته الذين لهم نعمة العقل فقط، مثل الموعوظين والوثنيين الذين لم يأتوا بعد إلى الإيمان. أمَّا الروح القدس، فهو يسكن فقط في الذين قبلوه في المعمودية[١]. ولذلك عندما يخطئ الموعوظون أو الوثنيون، فإن خطيئتهم هي ضد الابن فقط، لأنه هو فيهم كما ذكر -أوريجينوس- ولذلك، يمكنهم الحصـــول على المغفرة عندما يُكرَّمون بنعمة الميلاد الثاني. ولكن عندما يخطئ المعمَّد، فإن الخطية بعد المعمودية موجَّهة ضـــد الروح القدس الذي يسكن في الذين عُمِّدوا، ولذلك لا مناص من العقاب[٢].

أما ثيئوغنوســـتس، فهو كما ذكرت يتبع نفس شـــرح أوريجينوس ويقول إن الذي يتخطى الحاجز الأول والثاني يســـتحق عقوبة أقل. ولكن الذي يتخطى الحاجز الثالث لا يمكن أن يحصـــل على مغفرة. وهو يدعو التعليم الخاص بالآب والابن بالحاجزين الأول والثاني. أما الحاجز الثالث، فهو التعليم الذي يقال في المعمودية[٣] والخاص بالروح القدس. ولكي يؤكد ثيئوغنوســـتس هذا الشـــرح، اقتبس كلمات الرب للتلاميذ: ''عندي أشـــياء كثيرة لأخبركم ولكنكم لا تحتملون بعد، ولكن متى جاء الروح القدس، فهو ســـيعلمكم ..'' (يوحنا ١٦: ١٢ -١٣). وقال ثيئوغنوســـتس عن هذه الكلمات إن المخلص تحدث مع أُناسٍ لا يمكنهم أن يقبلوا التعاليم الكاملة، ولذلك نزل إلى مســـتواهم

---

(١) يفهم أوريجينوس، وهو على صواب تماماً أن عمل الآب والابن هو عملٌ عام في البشر، سواء آمنوا أم لم يؤمنوا. أما عمل الروح القدس فهو عملٌ خاص في الذين يستعدون للشركة مع الله. ونحن لا نحصل على سكنى الآب والابن إلا عن طريق الروح القدس، فهو الذي يهيئ النفوس لقبول الابن، والابن هو الذي يهيئنا لقبول الآب، أو حسب تعبير القديس أثناسيوس نفسه: "الله الآب يعمل فينا بالابن في الروح القدس"، راجع رسائل أثناسيوس عن الروح القدس، الرسالة الأولى ٦: ٢٤، ٣٠.

(٢) النص مأخوذ من كتاب المبادئ للعلامة أوريجينوس (١: ٣)، وهو ليس نقلٌ مباشر، بل اقتباسٌ لفكرة دون الخروج على النص. ويهمنا أن نلاحظ اهتمام الآباء بدراسة تفاسير الذين سبقوهم حتى لا يخرج ما يضاف من تفاسير على ما استقر في الكنيسة من تقليد. وكما هو واضح يعارض القديس أثناسيوس آراء أوريجينوس وثيؤغنوستوس.

(٣) حرفياً: "يسلم"، وهي التعاليم الخاصة بعمل الروح القدس في الإنسان.

غير الكامل[١]. أما الذين تكملوا فهم الذين قبلوا الروح القدس في المعمودية. والتعليم الكامل هو من نصيب الذين حلَّ فيهم الروح القدس[٢].

لكننا نحذِّر كل من يقرأ هذه الكلمات من عدم فهمها بصورة سليمة، إذ لا يجب أن يظن أحدٌ أن التعليم عن الروح القدس أسمى من التعليم عن الابن ما دام الابن قد نزل إلى مستوى غير الكاملين، بينما الروح القدس هو "ختم الكمال"[٣]. كما علينا أيضاً أن نحذر من الظن بأن الروح أسمى من الابن، طالما أن التجديف على الروح بلا مغفرة. ولكن المغفرة لغير الكاملين (غير المعمَّدين)، أما الذين ذاقوا الموهبة السماوية وصاروا كاملين، فلا مغفرة لهم ولا صلاة يمكنها أن تسهِّل لهم المغفرة[٤].

هذا ما ذكره هذان الكاتبان المجاهدان.

أما عن نفسي، فحسب ما تعلمت، أعتقد أن رأي كلٍّ منهما يتطلب فحصاً ومراجعةً دقيقةً؛ لأن كلمات الإنجيل الخاصة بالتجديف عميقة.

في الحقيقة واضح أن الابن في الآب، وبالتالي فهو في الذين فيهم الآب أيضاً. والروح القدس ليس غائباً عن الآب والابن؛ لأن الثالوث القدوس المبارك غير منقسم. وزيادة على ذلك إذا كان كل شيء قد خُلِق بالابن (يوحنا ١: ٣) وفيه كل الأشياء توجد (كولوسي ١: ١٧)، فهو ليس كائناً خارج الأشياء التي جاءت إلى الوجود بواسطته.

---

(١) المستوى غير الكامل هو المستوى الذي لا يحصل فيه الإنسان على إعلانات الروح القدس، ويظل عقله معتمداً على ما سمعه من شرح (عظة ٢٣ على سفر العدد للعلامة أوريجينوس).

(٢) تؤكد هذه العبارة أن ما كان متبعاً في القرن الرابع، كان معروفاً في القرن الثالث، وهو تأجيل الكلام عن الروح القدس إلى المعمودية وما بعد المعمودية أيضاً.

(٣) المعمودية هي ختم الروح القدس. راجع صلوات المعمودية في الكنيسة القبطية. و"الختم" هو أقدم أسماء المعمودية على الإطلاق.

(٤) يبدو أن التحذير من سوء الفهم هو جزء من شرح ثيؤغنوستوس، وليس من وضع أثناسيوس.

فكل المخلوقات ليســـت غريبة عنه. هو بالطبيعة في كل شـــيء وبالتالي كل مَن يخطئ ويجدِّف على الابن، يخطئ ويجدف على الآب والروح القدس. ولو كان حميم الميلاد الثاني قد أُعطي باسم الروح القدس فقط، لكان من المعقول أن نقول إن الذي عُمِّد، إذا أخطأ بعد المعمودية يخطئ ضد الروح القدس وحده. ولكن، لأن المعمودية تُعطى باسم الآب والابن والروح القدس، فكل مُعمَّد يقبل المعمودية باسم الثالوث، وبذلك يصبح واضحاً أن كلَّ مَن يجدِّف بعد المعمودية، يكون قد جدَّف على الثالوث الأقدس. وهذا هو التعليم الحقيقي الذي يجب أن نقبله[١].

ولو كان هؤلاء الذين تحدث معهم الرب، أعني الفريسيين، قد قبلوا حميم الميلاد الثاني، وحصلوا على نعمة الروح القدس؛ لكان التفسير السابق لكل من أوريجينوس وثيئوغنوستس مقبولاً[٢]. لأن الرب لم يكن يتكلم مع أُناسٍ ارتدُّوا وجدَّفوا على الروح القدس، لأننا إذا تذكَّرنا، لم يكن هؤلاء الناس -أي الفريسيين- معمَّدين، بل حتى معمودية يوحنا احتقروها ورفضوها (متى ٢١: ١٥- ٢٧)، فكيف يمكن اتهامهم بالتجديف على الروح القدس، وهم لم يحصلوا عليه بعد؟! ولذلك لم ينطق الرب بهذه الكلمات لكي يعلِّم عن الخطية بعد المعمودية، كما أنه لم يكن كذلك يهدد بعقوبة أولئك الذين سيخطئون في المستقبل بعد المعمودية، بل قال هذه الكلمات بطريقة مباشرة وصريحة ضد الفريسيين؛ لأنهم أذنبوا فعلاً وسقطوا في هذا التجديف الفظيع. لقد اتهمهم الرب بطريقة واضحة بالتجديف، وهم لم يقبلوا المعمودية. فإن هذه الكلمات ليست موجَّهة ضد الذين يخطئون بعد المعمودية، خصوصاً وأن الرب لم يكن يشتكيهم بخطايا عامة، ولكن بالتجديف بالذات، وهناك فرقٌ بين الذي يخطئ ويتعدى الناموس، والذي

---

(١) يُعتبر رد أثناسيوس على أوريجينوس وثيؤغنوستوس صحيحاً لأن وحدة الثالوث تجعل أي خطأ موجَّه لأي أقنوم، موجَّهٌ لباقي الأقانيم. ولكن وحدة الثالوث لا تلغي الوجود الخاص للروح القدس الذي لا يحل إلا في الذين نالوا المعمودية.

(٢) من المبادئ الأساسية التي الزم بها أثناسيوس في تفسير الكتاب المقدس مراعاة المناسبة التي قيل فيها النص، وتطبيقاً لهذه القاعدة يتضح أن الرب لم يكن يتحدث مع المعمدين، بل مع غير المعمدين وهم جماعة الفريسيين.

-بسبب عدم تقواه- يجدِّف على الله نفسه.

وقبل ذلك، اتهم الربُّ الفريسيين بخطايا أخرى مثل محبة المال التي من أجلها أبطلوا الوصية الخاصة بالوالدين، ورفضوا كلمات الأنبياء وجعلوا بيت الله بيت تجارةٍ، وفي كل هذا انتهرهم المخلص لكي يتوبوا. أما عندما قالوا إنه ببعلزبول يُخرج الشياطين، لم يقل لهم ببساطة إنهم يخطئون، بل إنهم يجدِّفون بصورة شنيعة تستوجب العقاب، وتجعل المغفرة مستحيلة لأنهم تمادوا إلى حيث لا حدود لخطئهم.

وزيادة على ذلك، لو كانت هذه الكلمات موجَّهة ضد الذين يخطئون بعد المعمودية وهؤلاء لا مغفرةَ لهم، فكيف أظهر الرسول محبة نحو التائب في كنيسة كورنثوس (٢كورنثوس ٢: ٨)؟ وماذا عن الغلاطيين الذين ارتدوا (غلاطية ٤: ٩)، والذين تألم الرسول لكي يولدوا ويتكون فيهم المسيح مرةً ثانية (غلاطية ٤: ١٩)؟ أو عندما يقول إنهم كملوا في الروح مرةً ثانية، وكيف نلوم نوفاتوس الذي يمنع التوبة، ونعترض على قوله بأن الذين يخطئون بعد المعمودية لا مغفرة لهم طالما أن هذه الكلمات الإنجيلية تؤيد تعليم نوفاتوس، وهي موجَّهة إلى الذين يخطئون بعد المعمودية؟[١]

وحتي كلمات الرسالة إلى العبرانيين (٦: ٤- ٦) لا تمنع توبة الخطاة، بل تشير إلى أن معمودية الكنيسة الجامعة تُعطى مرةً واحدة ولا يمكن أن تتكرر، ويجب أن نلاحظ أنه للعبرانيين بالذات، كتب الرسول هذه الكلمات؛ لأنه خاف عليهم من التظاهُر بالتوبة، وأنهم بسبب تمسكهم الشديد بالناموس الموسوي وشريعة التطهير، سيظنون أنه توجد فرصة لمعموديات يومية متكررة كما في (مرقس٧: ٣- ٤)، ولذلك يشجعهم على التوبة، ويعلن أن التجديد في المعمودية هو تجديدٌ فريد لا يُعاد. وفي رسالةٍ أخرى يقول: ''ايمان واحد، معمودية واحدة'' (أفسس ٤: ٥). وهو لا يقول إنه من المستحيل أن

---

(١) نوفاتوس، وتُكتَب بالإنجليزية Novatian عاصر اضطهاد دقلديانوس (٢٤٩ - ٢٥٠)، كان يرفض تماماً التوبة بعد المعمودية، وقد حُكِم على هذا التعليم بالخطأ في المجمع المسكوني الأول (٣٢٥) الذي عُقِد في مدينة نيقية، ويُعرَف أتباع نوفاتوس باسم (الأنقياء)، وفي اليونانية Catheri.

يتوب الساقط، بل من المستحيل أن نصنع نحن تجديداً لأنفسنا بالتوبة، والفرق كبير؛ لأن مَن يتوب يكُفُّ عن الخطية، ولكن آثار جروحه تظل ظاهرة، بعكس مَن يعتمد، فإنه يخلع العتيق ويتجدد (كولوسي ٣: ٩- ١٠)، بل ويولد مرةً ثانية بنعمة الروح القدس (يوحنا ٣: ٣).

وعندما أُفكِّر في هذه الأشياء، أجد في الكلمات السابقة عمقاً عظيماً، ولذلك بعد أن صلَّيت بلجاجة للرب الذي جلس عند البئر (يوحنا ٤: ٦)، ومشى على المياه (متى ١٤: ٢٥)، أعود إلى تدبير الخلاص الذي تم راجياً أن أكون قادراً على أن أملأ دلوي من معاني الكلمات الانجيلية التي نبحثها.

كل الكتب الإنجيلية، وبالذات يوحنا، تخبرنا عن التدبير الإلهي: "الكلمة صار جسداً وسكن فينا" (يوحنا ١: ١٤). وبولس عندما يكتب: "الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب مساواته لله اختلاساً بل أخلى ذاته وأخذ صورة عبد وصار في شبه الناس" (فيلبي ٢: ٦- ٨). ولأنه الاله الذي أخلى ذاته وصار إنساناً، أقام الموتى وشفى المرضى، وبكلمته حوَّل الماء خمراً .. وهذه كلها أعمالٌ ليست من قدرة البشر، ولكنه جاع وعطش وتألم لأنه أخذ جسداً، وكل أعمال الجسد ليست من صفات اللاهوت. كإلهٍ، قال: "أنا في الآب والآب فيَّ" (يوحنا ١٤: ١١)، ولأنه أخذ جسداً حقاً وبكل يقين، انتهر اليهود قائلاً: "لماذا تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد أخبركم بالحق الذي سمعه من الآب" (يوحنا ٨: ٤٠). ورغم كونه إلهاً إلا أنه لم يقم بهذه المعجزات مرةً واحدة لأنه تجسد وكان عليه أن يواجه الاحتياجات والظروف المرتبطة بحياته كإنسان، لكن لم تكن أعمال الجسد تتم بدون اللاهوت أو أعمال اللاهوت تتم بدون الجسد، بل على العكس كل أعماله صنعها الربُّ الواحد[1] الذي أكمل كل شيء في سر نعمته. وعلى سبيل المثال، بصق على الأرض كما يبصق كل الناس. لكن لعابه وحده كان فيه قوة إلهية لأنه وهب به البصر

(١) دون أن يدخل أثناسيوس في تفاصيل موضوع اتحاد اللاهوت بالناسوت، وهو الموضوع الذي أُثير في القرن الخامس، يؤكد أثناسيوس أنه لا توجد أعمال إلهية حدثت بمعزلٍ عن الأعمال الإنسانية؛ لأن مثل هذا التفكير يؤدي إلى إنكار الاتحاد وهدم وحدانية شخصية المسيح الإله المتجسد.

لعيني المولود الأعمى (يوحنا ٩: ٦). ورغم أنه الإله إلا أنه تكلم بلغة بشرية وقال: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣). وبإرادته منح الشفاء (متى ٨: ٣)، ولكن عندما مد يده الإنسانية، أقام حماة سمعان بطرس من الحمى (مرقس١: ٣١)، وبنفس اليد أقام من الموت ابنة رئيس المجمع (مرقس٥: ٤).

وقد أخطأ الهراطقة كل حسب مقدار جهله. البعض منهم نسب كل ما حدث من الرب لجسده (أي كإنسان) وتعاموا عن القول الإلهي: "في البدء كان الكلمة" (يوحنا ١: ١)، والبعض نسب ما حدث إلى لاهوته فقط، ولم يفهموا القول: "الكلمة صار جسداً" (يوحنا١: ١٤). لكن المؤمن الذي يتبع تعليم الرسل، يعرف غنى الرب ومحبته للبشر. وعندما يرى أعماله العجيبة الإلهية، يمجد الرب الذي ظهر في الجسد. وعندما يرى أعمال الجسد، يتعجب، ويرى فيها القوة الإلهية التي تعمل. هذا هو إيمان الكنيسة. ولذلك، إذا ثبَّت البعض عيونهم على الجانب الإنساني في حياة الرب وشاهدوه يختبر الجوع والتعب والألم، يتحدثون عنه بدون تقوى، كمن يتحدث عن إنسانٍ فقط، فيخطئون بذلك خطيةً عظيمة. وبلا شك إن لم يتأخروا في التوبة يمكنهم الحصول على المغفرة؛ لأن ضعفهم الإنساني هو عذرٌ لهم. وحتى الرسول، يمنحهم المغفرة وبطريقةٍ ما يمد يده إليهم لأنه بالحق يقول: "وبدون جدل، عظيمٌ هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (١تيموثاوس ٣: ١٦). وعندما يرى البعض أعمال اللاهوت، يترددون في الاعتراف بإنسانيته، وهذا خطأٌ بالغ. ويتوهمون عندما يقرأون أن الرب يأكل ويتألم، أنه خيال، هؤلاء إذا لم يتأخروا في التوبة سيغفر لهم يسوع لأنهم لا يفهمون أعماله الفائقة التي أتمها في الجسد[1]. واذا فحصنا جهل هؤلاء وأولئك، أي الذين يخطئون ولهم معرفة بالناموس مثل الفريسيين، أو الذين يستسلمون للجنون وينكرون وجود الكلمة في الجسد، أو يذهبون إلى أبعد من هذا عندما ينسبون أعمال اللاهوت إلى الشيطان وجنوده، فإنه من العدل أن تكون عقوبة عدم تقواهم هي عدم المغفرة؛ لأنهم اعتبروا الشيطان مثل الله

---

(١) إنكار التجسد خطية تماماً مثل إنكار أُلوهية المسيح؛ لأن الاعتراف بالمسيح كإنسان هو نصف الحقيقة، والاعتراف بالمسيح ربَّاً هو نصف الحقيقة، أما الاعتراف به الإله المتجسد فهو الحقيقة الكاملة.

وحسبوا أن مَن هو بالحقيقة الله، لا شيء في أعماله يدل على أُلوهيته، بل أنه الشيطان يستخدم أعوانه، وإلى هذه الدرجة السفلى من عدم التقوى انحدر اليهود في ذلك الزمان وبالذات الفريسيون منهم. ورغم أن الرب كان يقوم بأعمال الآب علانيةً، فهو أقام الموتى ومنح النظر للعميان وجعل العرج يمشون وفتح آذان الصم وجعل الخرس يتكلمون، معلناً أن الخليقة العاقلة وغير العاقلة خاضعة له؛ لأنه هو الذي أمر الريح ومشى على البحر، والجموع عاينت هذا وامتلأت بالدهشة ومجَّدت الله، إلا أن الفريسيين قالوا إن هذه أعمال بعلزبول. ومن فرط جنونهم لم يخجلوا من أن يعطوا للشيطان قوة الرب. وأمام هذا أعلن الرب بالحق أن تجديفهم بلا مغفرة؛ لأنهم عثروا في كل ما يختص بإنسانيته، وكان لهم في المسيح كإنسان، رأيٌ شرير، إذ قالوا: ''أليس هذا ابن النجار'' (متى١٣: ٥٥)، وكيف يفهم الكتب وهو لم يدرسها (يوحنا ٧: ١٥)، وما هي المعجزات التي ''تعملها لنؤمن بك'' (يوحنا٦: ٣٠) و ''لينزل عن صليبه الآن لنرى ونؤمن'' (متى ٢٧: ٤٢). وقد احتمل الرب كل هذا، وسمى الإنجيل مثل هذه الأقوال بالتجديف على ابن الإنسان، وتألم الرب من قساوة قلوبهم (مرقس٣: ٥)، وقال لو كنتم تعلمون ما هو سلامكم؟ (لوقا١٩: ٤٢)، وغفر الرب لبطرس عندما تكلمت معه الجارية عن يسوع كإنسان وأجاب بطرس بطريقة لا تختلف عن رأي الجارية وكلامها، ولكن الرب غفر له عندما بكي بدموع. أما عندما سقط الفريسيون إلى أدنى من كل هذا، وتفوهوا بما هو أشر من كل ما سبق، حتى أنهم قالوا إن أعمال الله هي أعمال بعلزبول، لم يحتملهم لأنهم جدَّفوا على روحه بقولهم إن مَن يعمل هذه الأعمال ليس الله، ولكنه بعلزبول. ولهذا السبب استحقوا عقوبةً أبديةً. وفي الحقيقة أن جرأتهم زادت عن الحد. وعندما رأوا ترتيب العالم والعناية به نسبوا الخلق[1] إلى بعلزبول، فكيف إذن يفهمون القول الإلهي: "في البدء خلق الله السموات والأرض" (تك ١: ١)؟ ولكن مثل هذا الجنون ليس غريباً عنهم لأن آبائهم أظهروا نفس الطباع، فبعد خروجهم من مصر صنعوا العجل الذهبي في البرية ونسبوا إليه

(١) كانت معجزات المسيح باهرة جداً لأنها تضمنت سيطرة كاملة على عناصر الطبيعة، بل والموت نفسه، وكلها أعمال من أعمال الخلق، وهذا يزيد من بشاعة خطية الفريسيين.

المعجزات والبركات التي آخذوها من الله وقالوا: "هذه آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من أرض مصر" (خروج٣٢: ٤)، وبسبب هذا التجديف الذي ارتكبه أولئك المجانين، تم فناء الكل في البرية وأعلن الله أنه في يوم افتقاده "سوف يجلب شرهم عليهم" (خروج٣٢: ٣٤). وعندما اشتكوا من انعدام الخبز والماء، اهتم بهم تماما مثل المرضعة برضيعها، ولكنهم زادوا الشكوى إلى الحد الذي وصفه الروح القدس في المزامير: "ابدلوا مجده بصورة العجل الذي يأكل الحشيش" (مزمور١٠٥: ٢٠). وعندما اجترأوا على ارتكاب مثل هذا العمل الذي لا مغفرة له، ضربهم الرب كما يقول الكتاب بسبب العجل الذي سبكه هارون (خروج ٣٢: ٣٥). وتصرف الفريسيون بنفس الوقاحة، ولذلك أخذوا من الرب عقوبةً مماثلة، بل هي عقوبة مثل عقوبة بعلزبول نفسه الذي تحدثوا عنه، كي يحترقوا معه بنارٍ أبدية.

ولم يكن الرب يقصد بما قاله في الإنجيل أن يقارن بين التجديف الموجَّه ضده، والتجديف الموجَّه للروح القدس، ولا أشار ولو من بعيد أو بطريق غير مباشر، إلى أن الروح القدس أسمى منه، ولا لأن التجديف على الروح أخطر، نطق الربُّ بهذه الكلمات -حاشا- لأنه علِم من قبل أن كل ما هو للآب فهو للابن، وأن الروح يأخذ من الابن وبذلك يمجد الابن (يوحنا ١٦: ١٤-١٥). والروح لا يُعطي الابن، بل الابن هو الذي يعطي الروح، وقد أعطاه لتلاميذه. وبهم لمن يؤمنون به بواسطتهم. ولم يكن الرب يقارن نفسه بالروح عندما قال هذه الكلمات، كما أنها لا تعني أن الروح أسمى من الرب، فهذا سوء فهم لكلمات المخلص. والتجديف بنوعيه[1] موجَّهٌ بالضرورة للروح القدس. والنوع الأول من التجديف محتمل، أما النوع الثاني فهو خطير. وقد ارتكب الفريسيون نوعي التجديف لأنهم رأوه إنساناً فأهانوه بقولهم: "من أين له هذه الحكمة" (متى ١٣: ٥٤)؟ وقولهم: أنت لم تبلغ بعد من العمر ثلاثين سنة، فكيف رأيت إبراهيم (يوحنا ٨: ٥٧)؟ ورغم أنهم رأوا أعمال الآب فيه، إلا أنهم لم يرضوا بألُوهيته. وبدلاً من هذا قالوا إن

(١) أي التجديف على المسيح كإنسان وكإله.

بعلزبول فيه، وإن هذه الأعمال هي أعمال بعلزبول، وبذلك أصبح تجديفهم بنوعيه موجَّهٌ ضده. والنوع الأول أقل خطورة بسبب العذر الواضح، وهو إنسانيته، أما النوع الثاني فهو أكثر خطورة؛ لأنه إهانةٌ موجَّهةٌ إلى أُلوهيته. ومثل هذا التجديف الخطير هو الذي استدعى عقوبة عدم المغفرة. ومن الواضح أن الرب كان يشجع التلاميذ عندما قال لهم: ''إذا كانوا قد دعوا رب البيت بعلزبول'' (متى١٠: ٢٥)، وأكد هنا أنه رب البيت الذي جدَّف عليه اليهود.

أما اليهود، فعندما قالوا عنه: ''بعلزبول''، لم يهينوا أحداً سوى الرب يسوع، وهذا واضحٌ من التعبير نفسه لأن كلمة ''الروح'' في نص الإنجيل تشير إلى الرب يسوع وإلى الروح القدس؛ لأن ''رب البيت'' يُراد به المسيح، أي رب الكون كله. وأنا أرجوك أن لا تتضايق من هذا التكرار، فهو لازمٌ إذا كنا نحرص على الوصول إلى المعنى الدقيق للنص، ولذلك سأعود إلى ما ذكرته سابقا: أن الجوع والتعب والنوم والإهانات كلها خاصة بناسوته، أما الأعمال الباهرة التي كان يقوم بها الرب، فلم تكن أعمالُ إنسانٍ، بل أعمال الله. لذلك إذا ما شاهد بعض الناس الأشياء الخاصة بالإنسان مثل الجوع .... الخ وأهانوا الرب لأنه حسب ظنهم مجرد إنسان، فقد حُسِبوا مستحقين لعقوبةٍ أقل من عقوبة أولئك الذين ينسبون أعمال الله للشيطان. لأن هؤلاء لا يكتفون بإلقاء الأشياء المقدسة للكلاب (متى ٧: ٦)، بل يجعلون الله مساوياً للشيطان، ويدعُون النورَ ظلمةً (أشعياء٥: ٢٠). لذلك سجل مرقس أن تجديف اليهود بلا مغفرة، وأما مَن جدَّف على الروح القدس، فلن يُغفر له، بل هو مستحق دينونة أبدية، لأنهم قالوا إن به روحاً نجسا (مرقس٣: ٢٩-٣٠).

والرجل الأعمى منذ ولادته عندما أبصر، شهد بأنه لم يسمع من قبل أن احداً فتح عيني مولود أعمى، ولذلك قال: ''إذا لم يكن هذا الإنسان من الله لا يستطيع أن يفعل شيئاً'' (يوحنا ٩: ٣٢-٣٣). حتى الجموع نفسها عندما امتلأت من الإعجاب بما فعله الرب قالت: ''إن هذه ليست أعمال مَن فيه شيطان. هل يقدر شيطان أن يفتح أعين العميان'' (يوحنا ١٠: ٢١). أما هؤلاء الذين امتلأوا من معرفة الناموس، أي

الفريسيون وهم الذين يلبسون العصائب العريضة (متى ٢٣: ٥)[١]، ومزهوون بمعرفتهم بالناموس أكثر من باقي الناس (يوحنا ٩: ٢٤-٢٩). كان من المفروض عليهم بسبب هذه المعرفة أن يخجلوا، ولكن كما هو مكتوب عنهم أنهم ''تعساء لأنهم ذبحوا للشيطان وليس لله'' (تثنية ٣٢: ١٧). وعندما قالوا إن بالرب شيطاناً، وإن أعمال الله هي أعمال الشيطان لم يكن لديهم أي أسباب مقنعة تدفعهم إلى هذا الاعتقاد. والدافع الحقيقي لمثل هذا التجديف هو رغبتهم في أن ينكروا أن الذي يعمل هذه الأعمال هو الإله ابن الله. وبالحقيقة لقد أكل أمامهم وشاهدوا جسده، وتأكدوا أنه إنسانٌ، فكان لديهم فرصة لأن يقتنعوا من أعماله أن الآب فيه وأنه في الآب. أما لماذا لم يقتنعوا؟ فلأنهم لم يشاءوا.

وفي الحقيقة، لقد سكن بعلزبول في الفريسيين. وكان بعلزبول هو الذي يتكلم فيهم. ولذلك قالوا عن المسيح إنه مجرد إنسان، بسبب ناسوته، دون الاعتراف به إلهاً بسبب أعماله التي هي أعمال الله. ولكن بهذه السقطة ألَّهوا بعلزبول الذي سكن فيهم، والذي في النهاية سوف يعاقَبون معه في النار إلى الأبد.

ودراستنا للنص توضح لنا أنه يعني نوعي التجديف الذي أشرنا إليه سابقاً. ذلك أن المخلص أشار إلى نفسه عندما قال ''ابن الانسان''، ولكنه كان يعني أيضاً نفسه عندما تحدث عن '' الروح''. والاسم الأول ''ابن الإنسان'' يوضح تجسده، والاسم الثاني ''الروح'' يوضح طبيعته الروحية غير المادية ولاهوته. وفي الواقع أن الخطية التي يمكن غفرانها هي العثرة الناتجة عن رؤية ناسوته، أي ما يتعلق به كابن الإنسان، ولكنه أوضح أن التجديف الذي لا يمكن مغفرته هو التجديف على ''الروح''، أي على الطبيعة الإلهية[٢].

---

(١) العصائب وتسمى phylacteries وهي قطع من الجلد كان الفريسيون يكتبون عليها الوصايا العشر، وأحياناً الوصيتين الخاصة بوحدانية الله، والثانية الخاصة بمحبته من كل القلب. وتُعرف هاتين الوصيتين باسم "الشمع" لأن أول كلمة فيها هي "اشمع"، أي "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا ربٌّ واحد" (تثنية ٦: ٤) وكانت هذه القطع توضع على الجبهة وتُربَط بقطعة من القماش.

(٢) لا ينكر القديس أثناسيوس أن الفريسيين جدَّفوا على الروح القدس الأقنوم الثالث من الثالوث، ولكنه هنا يؤكد أن

وقد لاحظت أن التعبير ‘‘الروح’’ جاء بالمعنى الذي نتحدث عنه في إنجيل القديس يوحنا عندما كان الرب يتحدث عن تقديم جسده. ولما رأى أن كثيرين عثروا بسبب ما ذكره عن جسده، قال لهم: "هل هذا يعثركم؟ وماذا ستفعلون عندما تشاهدون ابن الانسان صاعداً إلى حيث كان سابقاً ؟ الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روحٌ وحياة". (يوحنا٦: ٦٢-٦٣). وقد تحدث الرب هنا عن ‘‘الجسد والروح’’، وكما هو واضح، كان يتحدث عن نفسه. وميَّز بين الجسد والروح لكي يتمكن الذين سمعوه من الإيمان بما يرون، أي بجسده، وكذلك الإيمان بغير المنظور، اي الروح أو لاهوته، لكي يؤمنوا أن ما يتكلم عنه ليس الجسديات، بل الروحيات.

ولنسأل كم عدد البشر الذين يمكن أن يقدم لهم جسده المادي؟ وماذا عنه كغذاء للعالم كله؟ لهذا السبب تحدث عن صعود ابن الانسان إلى السماء لكي يبعد عن أفكارهم كل التصورات المادية عن جسده، ولكي يفهموا جيداً بدون أي تصورات مادية أن جسده الذي يتكلم عنه هو طعام سمائي يأتي من فوق كغذاء روحي[1] يعطيه هو بنفسه. وحقاً قال: ‘‘الكلام الذي أكلمكم به روح وحياة’’ (يوحنا٦: ٦٣)، أي أن ما أعلنه، وما سيعطيه لخلاص العالم هو جسده، ولكن هذا الجسد عينه بما فيه من دم، سوف يُعطى لكم بواسطتي روحياً وكطعام، وبطريقة روحية سوف يوزَّع على كل واحد منكم لكي يصبح عربون القيامة والحياة الأبدية.

التجديف على الروح القدس يعني التجديف على الآب والابن؛ لأن الثالوث واحد لا ينقسم، ثم ينتقل إلى نقطةٍ أعمق، وهي أن اسم "الروح القدس" إنما يعني الطبيعة الإلهية للثالوث ولا يخص الروح القدس وحده، ذلك أن الآب والابن كلاهما "روحٌ"، وكلاهما "قدوسٌ". ولا يختلف أثناسيوس هنا عن أيٍّ من آباء الكنيسة.

(١) كلمة "طعام روحي"، "روحي" بشكلٍ عام تعني أنه فوق اختبار الحواس، ولا تعني بالمرة أنه طعام غير حقيقي. ويؤكد أثناسيوس هنا أن الإفخارستيا ليست ناسوت المسيح وحده، بل ناسوت المسيح ولاهوته، وهو ما يشير إليه الرب يسوع نفسه: "الجسد لا يفيد شيئاً ولكن الروح هو الذي يحيي" (يو ٦: ٦٣). وجسد المسيح وحده بدون اللاهوت لا قيمة له مطلقاً، هو مثل أي جسد بشري، ولا يجوز أكله، ولكن مادام هو جسد الكلمة المتجسد، فإن فيه كل ما نحتاجه من عطايا. وتعبر الكنيسة البيزنطية عن هذه الحقيقة في عبارة قوية في قداس ذهبي الفم: "يجزَّأ ويقسَّم حمل الله الذي لا يجزَّأ ولا ينقسم ويؤكل كل حين ولا ينفذ أبداً، بل يقدِّس متناوليه".

واستعمال كلمة ''روح'' جاء بنفس المعنى في حديث الرب مع السامرية عندما وجَّه فكرها إلى المعنى الروحي، ورفع نظرها إلى الأمور غير المادية بقولها لها: ''الله روح'' (يوحنا ٤: ٢٤)، لكي يستقر في قلبها الفهم الصحيح عن الله، إنه ليس من طبيعة مادية محصورة في مكان، بل إنه روحٌ. وهذا ما يعنيه كلام التعليم الذي يقول عندما يتأمل الكلمة وقد تجسد: ''روح الإيمان هو المسيح الرب''[١]. وحتى لا يعثر أحدٌ ما بالشكل الخارجي الملموس ويظن أن الرب مجرد إنسان، جاءت كلمة ''الروح'' لتؤكد أن الذي في الجسد هو الله.

وهكذا يبدو لنا شيئان ظاهران تماماً، الأول هو حالة مَن يرى الرب في الجسد ويعتبره مجرد إنسان، ويقول بعدم إيمان: ''مِن أين الحكمة لهذا الإنسان'' (متى١٣: ٥٤)؟ وكل مَن يتكلم بهذا يخطئ بدون شك ويجدف على ابن الإنسان. والثاني يرى أعماله التي تتم بالروح القدس، ويقول إن صانع هذه الأعمال ليس الله ولا ابن الله، وينسب هذه الأعمال لبعلزبول، مثل هذا يُنكر لاهوته، وهذا ما يظهر واضحاً عدة مرات في الإنجيل، لاسيما في النص الذي نشرحه.

ومرةً أخري، نكرر، عندما يوصف الرب بأنه ''ابن الانسان''، فهو نفسه يستخدم هذا اللقب لتأكيد بشريته، ولكن عندما يتحدث عن الروح، أي الروح القدس الذي به يصنع كل هذه الأعمال والذي هو (الروح) أيضاً فيه، يقول بعد إتمام أعماله الباهرة: ''إذا كنتم لا تؤمنون بي فعلى الأقل آمنوا بالأعمال التي أعملها لكي تعرفوا أنني في الآب والآب فيَّ'' (يوحنا١٠: ٣٨)[٢].

---

(١) في بعض النسخ: "وهذا ما يعنيه النبي عندما يتأمل الكلمة وقد تجسد". ولكن هذا النص غير موجود في العهدين القديم والجديد. ومع وجود خطأ في معظم النسخ، أخذنا بقراءة نسخة واحدة، وهو النص الذي وضعناه في الترجمة، وكلمة "النبي" هنا تشير إلى المعلم الكنسي الذي وضع اللن أو الفقرة التي اقتبسها أثناسيوس.

(٢) من الضروري أن نفهم علاقة الابن المتجسد بالروح القدس. وعن ذلك يقول أثناسيوس: "لم يمانع الرب وهو في الجسد أن يتحدث بشكلٍ معيَّنٍ عن نفسه كمن يحتاج إلى الروح القدس ... "إن كنت بروح الله أُخرِج الشياطين" (متى ١٢: ٢٨) والذي يعطي الروح يقول هنا إنه يُخرِج الشياطين بالروح. وهو لم يقل هذا إلا وهو في الجسد؛ لأن الطبيعة

أما عن موضوع موته عنا بالجسد، عندما صعد إلى أورشليم (متى٢٠: ١٨) لهذه الغاية، فقد قال لتلاميذه: ''ناموا الآن واستريحوا لأن الساعة قد أتت وابن الإنسان سوف يُسـلَّم لأيدي الخطاة'' (متى٢٠: ٤٥). وحقاً إن أعماله تجعل أي إنسـانٍ يؤمن أنه بالحقيقة الله، ولكن موته يؤكد أيضـاً أنه بالحقيقة تجسَّـد. ولهذا السـبب قال إن الذي سيُسلَّم لأيدي الناس الخطاة هو ابن الإنسان، لأن الكلمة غير مائت ولا يمكن لمسه، بل هو في جوهره الحياة نفسـها. ولكن عندما لم يؤمن الفريسـيون ''بأعمال الرب ولا بالأعمال التي كان أبناؤهم يقومون بها، وبَّخهم الرب بلطفٍ بهذه الكلمات'' (متى١٢: ٢٧-٢٨). وإشـارته هنا إلى ''الروح''، أو ''روح الله'' لا تعني أنه أقل من الروح، أو أن الروح هو الذي كان يعمل هذه الأعمال بواسطته، ولكن لكي يوضح أنه كلمة الله الذي يعمل كل هذه الأعمال بالروح، ولكي يعرف سـامعوه أنهم عندما ينسـبون هذه الأعمال لبعلزبول، بينما هي أعمال الروح، فإنهم يهينون الذي يعطي الروح، أي الابن. وحقا لقد أعلن في نص الإنجيل (متى ١٢: ٢٧) أنهم قد نزلوا إلى أسـفل الدرجات، وأنهم بمعرفةٍ يجدِّفون، وليس بسـبب الجهل، بل هم يجدِّفون رغم أنهم يعرفون أن الأعمال التي يعملها

البشرية ليس لها قدرة ذاتية على طرد الشياطين، وإنما تنال هذه القدرة من الروح القدس. لذلك، كإنسان قال: "إذا كنت بروح الله أُخرِج الشياطين" ... ولا يمانع الرب نفسه معطي الروح في أن يعلن كإنسان إنه بالروح يُخرِج الشياطين. ولنفس السبب، وهو مانح الروح، لا يرفض أن يقول: "روح الرب عليَّ لأنه مسحني" (أش ٦١: ١). وكل هذه الأقوال خاصة به وهو متجسد كما قال يوحنا: "الكلمة صار جسداً" (يو ١: ١٤) .. فإننا نحن الذين نحتاج لنعمة الروح في تقديسنا، ونحن الذين لا نقدر على طرد الشياطين إلا بقوة الروح. لذلك، في المسيح ومن المسيح، كان يجب أن يُعطى لنا الروح بالابن المتجسد الذي له الروح القدس. ومتى استطعنا أن نأخذ الروح إلا عندما تجسد الكلمة؟" (ضد أريوس ١: ٥٠). وهذا المبدأ الهام هو أحد قواعد العقيدة الأرثوذكسية، وهو أن ما أخذه المسيح، فقد أخذه كرأس الإنسانية أو آدم الثاني. وكل ما أخذه، إنما يعطيه لنا نحن البشر؛ لأن ما أخذه المسيح، أخذه كإنسان. يقول أثناسيوس: "قبل تجسده أعطى الكلمة للقديسين مما له، أي الروح القدس. وعندما صار إنساناً، قدَّس الكل بالروح وقال لتلاميذه: "اقبلوا الروح القدس". لكن قبل التجسد أعطى الروح لموسى ولسبعين شيخاً من بني إسرائيل، وفيه صلى داود للآب قائلاً: "لا تنزع روحك القدوس مني" (مز ٥١: ١١). وعندما صار إنساناً، قال: "سأرسل إليكم المعزِّي روح الحق" (يو ١٥: ٢٦)، وأرسله إلينا لأنه كلمة الله الأمين. ولأن يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣: ٨)، يبقى بلا تغير، لكنه يعطي ويأخذ .. يعطي لأنه كلمة الله، ويأخذ لأنه تجسد .. والبشرية أخذت فيه ومن خلاله بداية حصولها على النِّعم الإلهية" (ضد أريوس ١: ٤٨). وربنا في تجسده أخذ الروح القدس نيابةً عن الإنسانية ولأجلها، لكي يعطي الطبيعة الإنسانية بالحق والفعل كل ما تحتاجه من تجديد وهبات وعطايا سمائية.

هي أعمال الله، ولكن هؤلاء المجانين نسبوا هذه لبعلزبول، وأنها تمت بواسطة روحٍ نجس.

وكيف يستطيع أُناسٌ لهم مثل هذه الوقاحة أن ينتقدوا الوثنيين الذين يصنعون الأصنام ويدعونها آلهة؟ حقا إن جنون الفريسيين مثل جنون الوثنيين. كلاهما يفعل ذات الشيء، وإن كان الذي فعله الفريسيون أكثر خطورة؛ لأنهم بعد أن أخذوا الناموس الذي يحذِّرهم من عبادة الآلهة الغريبة، يتجرَّأون ويحتقرون الله عندما يخالفون الناموس.

ولكن بعد هذا التجديف، ماذا سيفعلون عندما يسمعون أشعياء النبي وهو يخبر عن علامات مجيء المسيح، مثل رد البصر للعميان، ومشي العرج، ونطق الخرس، وإقامة الموتى، وشفاء البُرَّص، وفتح آذان الصُّم؟! مَن هو صانع كل هذه المعجزات؟ إذا قالوا الله الآب، فإنهم يدينون أنفسهم بعدم قبول الرب؛ لأن ما رآه النبي وأخبر عنه هو ما يفعله الرب يسوع عندما كان على الأرض في الجسد. ولكن إذا أُصيبوا بالعمى وقالوا هذه الأعمال هي أعمال بعلزبول، فإنهم بذلك ينحدرون شيئاً فشيئاً إلى عدم التقوى، خصوصا عندما يقرأون: "مَن الذي أعطى النطق للإنسان ومن الذي خلق الصم والخرس والذين لهم عيون والعميان" (خروج ٤: ١١)؟ ونصوصٌ أخرى مشابهة، وربما قادهم جنونهم إلى الادعاء بأنه حتى هذه الكلمات نفسها هي كلمات بعلزبول. وهذا هو التطور الحتمي لفكرهم، لأنهم إذا نسبوا إليه نعمة البصر، فإنهم ينسبون إليه أسباب العمى أيضا حيث أن كلمات الكتاب المقدس تؤكد أن الذي قام بالخلق هو الذي قام بالمعجزات، وأنه هو صاحب[1] كل النصوص. وبالتالي سيصلون إلى نتيجة رهيبة وهي أن خالق الطبيعة البشرية هو بعلزبول لأن من صفات الخالق أن يكون له سلطان على خليقته. وهذا يؤكده موسى: "في البدء خلق الله السموات والأرض ... وخلق الإنسان على صورته" (تكوين١: ١و٢٧). ودانيال أعلن لداريوس: "أنا لا أعبد أصناماً مصنوعة بيد الإنسان، بل الله الحي الذي خلق السماء والأرض، والذي له سلطان على كل جسد" (تتمة سفر دانيال:٥). وإذا غيروا فكرهم وتصوروا أن ضعفات الجسد مثل

(١) حرفياً: مؤلف.

العمى والعَرَج هي عقوبة من الخالق، بينما الشفاء وعمل الرحمة هو من بعلزبول، فإن مجرد مناقشة هذا الرأي هو الجنون بعينه. وطريقة تفكير هؤلاء الناس هي طريقة المجانين والسكارى وعديمي التقوى؛ لأنهم أصبحوا ينسبون ما هو حسن، أي معجزات الرحمة لبعلزبول، وليس لله. ومثل هؤلاء الناس لا توبخهم ضمائرهم عندما يغيِّرون تعاليم الكتب المقدسة طالما أنهم يصلون إلى غايتهم، وهي إنكار مجيء المسيح[1].

وكان من الأفضل لهؤلاء الناس الأشرار الامتناع عن إهانة المسيح "كابن الإنسان"، طالما أن له جسداً بشرياً، أو الاعتراف به كإلهٍ حقيقي بسبب معجزاته، ولكنهم فعلوا العكس تماما؛ لأنهم عندما أدركوا أنه إنسانٌ، احتقروه. وعندما عاينوا معجزاته الإلهية، أنكروا لاهوته ونسبوا هذه المعجزات للشيطان. وظنوا أنهم بمثل هذه الوقاحة وهذا التجديف، سيهربون من دينونة الكلمة الذي أهانوه. ولنتذكر أن العرَّافين والمنجمين وسحرة فرعون عندما حاولوا تقليد معجزات موسى، عجزوا وانسحبوا معلنين أن هذا هو أُصبع الله (خروج ٨: ١٩). وبينما أبصر الفريسيون والكتبة يد الله وهي تعمل، بل عاينوا معجزات أكثر وأعظم قام بها المخلص، قالوا إن الذي فعل كل هذه المعجزات هو بعلزبول، مع أن بعلزبول هو إله السحرة الذين اعترفوا بأنهم عاجزون عن القيام بأي عملٍ خارقٍ، وحتي اقل من أعمال موسي، فمن ذا الذي يمكنه أن يقبل إهانة الفريسيين أو فسادهم الذي سبق الأنبياء ودانوه؟!

وإذا قارننا بين خطية الفريسيين وذنوب أهل سادوم، يصبح أهل سادوم بالنسبة إلى الفريسيين أبراراً. بل لقد زادوا في جهلهم أكثر من الوثنيين وغباوة سحرة فرعون، ولا مثيل لهم في جرمهم إلا الأريوسيين لأنهم معاً سقطوا في نفس الفساد. لأن اليهود عندما رأوا أعمال الآب التي يقوم بها الابن، نسبوها لبعلزبول. والأريوسيون عندما رأوا نفس الأعمال، نسبوها لمخلوق؛ لأنهم قالوا إن الابن خُلِقَ من لا شيء، وأنه مَرَّ وقتٌ لم يكن

---

(١) يبرهن أثناسيوس على أن الفريسيين اعتبروا أن المعجزات من عمل الشيطان (بعلزبول)، بينما كانت كلها معجزات للخير مثل إقامة الموتى ورد نعمة البصر. فإذا كان الكتاب المقدس ينادي بإلهٍ واحدٍ قادرٍ على أن يمنح نعمة البصر والحياة، فمن يستطيع أن يدعي أن هناك إلهٌ آخر له نفس القدرة؟

فيه الابن كائناً. والفريسيون تذمَّروا عندما رأوا الرب في الجسد وقالوا: ''لماذا وأنت إنسانٌ تجعل نفسك إلهاً'' (يوحنا ١٠: ٣٣)؟ وهؤلاء الأريوسيون أعداء المسيح عندما رأوه ينام ثم يتألم، جدَّفوا عليه بهذه الكلمات: "الذي يعاني كل هذه الآلام لا يمكن أن يكون الإله الحقيقي، ولا من ذات جوهر الآب"[١].

وأخيراً، إن كل من يريد أن يفحص جنون الجماعة الأولى أو الثانية، سوف يرى أنهم في النهاية سوف يستقرون في وادي الظلام (تكوين ١٤: ٨). ولهذا السبب أعلن المخلص أنه بالنسبة للجماعتين، توجد عقوبة واحدة لهذه الجريمة الواحدة، وهي عدم المغفرة: ''أما الذي يجدِّف على الروح القدس فلا مغفرة له، لا في هذا الدهر، ولا في الدهر الآتي'' (متى ١٢: ٣٢). وهذا صوابٌ تماماً؛ لأن الذي ينكر الابن، لا يجد من يُسرع لمصالحته مع الآب. وأيُّ حياةٍ أو راحةٍ ستبقى لمثل هذا الإنسان الذي يرفض ذاك الذي قال: ''أنا هو الحياة'' (يوحنا ١٤: ٦)، و: ''تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أُريحكم'' (متى ١: ٢٨)؟ فإذا كانت هذه هي عقوبة المجدِّفين، وهي عقوبة كل مَن يعتنق عقيدتهم في المسيح، فإنه من المؤكد أن الذين يعبدون الرب في الجسد وفي الروح ولا ينكرون أنه ابن الله، وأنه تجسد، بل يؤمنون في وقت واحد أنه: ''في البدء كان الكلمة والكلمة صار جسداً'' (يوحنا ١: ١و١٤)، فسوف يملكون مع المسيح إلى الأبد في السماء حسب مواعيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي قال: ''يذهب هؤلاء إلى عذابٍ أبدي والأبرار إلى حياةٍ أبدية'' (متى ٢٥ :٤٦).

* * *

لقد كتبت هذا الشرح المختصر حسبما تعلَّمت، أما بالنسبة لك، فأرجو أن تقبل هذا الشرح، ليس كتعليم كامل وتام في ذاته، بل كبداية تحتاج إلى أن تكملها معتمداً على نصوص الأناجيل والمزامير .واربط حزمة الحق، حتى عندما يراك الناس وأنت

---

(١) هذه الكلمات مقتبسة من الأناشيد الأريوسية المعروفة باسم "الثاليا" لأن فيها إيقاع موسيقي شعري.

تحملها يقولون: ‘‘بالفرح حاملين أغمارهم’’ (مزمور١٢٥: ٦).

ليكن لنا هذا الفرح في يسوع المسيح ربنا الذي به وله مع الآب والروح القدس المجد والقوة والملك في دهر الدهور. آمين.